الأدويـة

obeikandl.com

obeikandl.com

باب التداوي

أعلم أن هذا الباب واسع جدًّا ويحتاج إلى مصنف مستقل؛ لكي يستوعب ما جاء في القرآن والسنة من أدوية، ولكن لا أحتاج إلى هذا هنا، إنما أذكر في هذا الباب ما يتسع المقام لذكره، ثم ما يهم أدوية السحر والعين والمس فقط؛ لأنه متصل بما سبق من الأبواب.

وفي هذا الباب أذكر أولًا فضل المرض، وإن كنت أفردتُ له كتابًا لكن لا مانع من ذكر بعض هذه الأحاديث كمدخل للتداوي، ثم أذكر فضل الصرع وفضل الصابر المحتسب، ثم أذكر بعض الأدوية النافعة -إن شاء الله- للسحر والحسد والمس، ثم أذكر معه بعض ما جُرب في علاج السحر والحسد والمس، ثم أذكر من طَبَّبَ ولم يُعرف عنه ذلك.

بعض الأحاديث الواردة في فضل المرض والصرع

١- عن صُهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»[(١)].

٢- عن سعد بن أبي وقَّاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «عَجِبْتُ لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ حَمِدَ اللهَ وَشَكَرَ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ حَمِدَ اللهَ وَصَبَرَ، فَالْمُؤْمِنُ يُؤْجَرُ فِي كُلِّ أَمْرِهِ، حَتَّى فِي اللُّقْمَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى فِي امْرَأَتِهِ»[(٢)].

٣- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ»[(٣)].

قال الحافظ في (الفتح) (١٠/١٣٤): «وفي هذه الأحاديث بشارة عظيمة لكل مؤمن؛ لأن الآدمي لا ينفك غالبًا من ألم بسبب مرضي، أو همٍّ، أو نحو ذلك مما ذُكر، ولأن الأمراض والأوجاع والآلام -بدنية كانت أو قلبية- تُكفِّر ذنوب من تقع له.

وسيأتي ما رواه البخاري [٥٦٤٧] من حديث ابن مسعود: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذىً إِلاَّ حاتَّ اللهُ عنهُ خَطَاياه»، وظاهره تعميم جميع الذنوب، لكن الجمهور خصّوا ذلك بالصغائر، وقوله: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ» قال أبو عبيد الهروي: معناه: «يبتليه بالمصائب ليُثيبه عليها»، وقال غيره: «معناه: يُوجِّه إليه البلاء فيصيبه».

أقول: إن الله - تعالى - اختص من عباده أقوامًا واصطفاهم بالخيرية فعلَّمهم القرآن، كما قال ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»، وهو في (الصحيحين)

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ٣٣٢-٣٣٣)، ومسلم [٢٩٩٩]، والدارمي [٢٧٧٧] وغيرهم.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (١/ ١٨٢)، والطيالسي [٢١١]، وعبدالرزاق (١١/ ١٩٧)، ومحمد بن حمد [١٣٩، ١٤٣]، والنسائي في اليوم والليلة [١٠٦٧].

(٣) أخرجه البخاري (١٠/ ١٠٣)، وابن حبان [٢٩٧٠]، والبيهقي في الشعب [٩٧٨٠].

عن معاوية؛ فهؤلاء خصَّهم الله تعالى وأراد لهم الخير فعلمهم القرآن والسنة، وهؤلاء هم خيرة أهل الأرض من الناس بعد النبيين والمرسلين، فكذلك خصَّ الله تعالى قومًا بالخيرية فابتلاهم بالأمراض والأوجاع وذلك ليكفّر عنهم سيئاتهم وليقربهم إليه وليرفع لهم الدرجات يحط عنهم الخطايا، وهذه الخيرية زيادة في الحب وزيادة في القرب، فمن أراد الله به خيرًا ابتلاه؛ وذلك ليقربه وليرفع درجته، والله أعلم.

٤- وعن محمود بن لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**إذا أحبَّ الله تعالى قومًا ابتلاهم، فمَن صَبَر فلَهُ الصبر، ومن جَزِعَ فلهُ الجَزَعُ**»، وفي رواية أحمد: «**ومن جزع فله الجزع**»[1]، وله شواهد منها:

٥- حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**إنّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عظمِ الْبَلَاءِ، وَإِنّ الله إِذَا أَحَبّ قَوْماً ابْتَلاَهُم فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرّضَى وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السّخَطُ**»[2].

٦- وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ قال: «**ما مِنْ مرضٍ أو وجعٍ، يُصيبُ المؤمنَ إلاّ كان كفارة لذنبه حتى الشوكة**»[3].

٧- وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**ما مِنْ مُسْلِم يُصِيبُهُ أذًى مِنْ مَرَضٍ فَمَا فَوقه إلّا حَطَّ الله خَطَايَاهُ، كَمَا تَحُطُّ الشّجَرُ وَرَقَهَا**»، وهو في (الصحيحين) كما سيأتي.

٨- وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ قال: «**مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يُشَاكُ بِشَوْكَةٍ فَمَا فَوْقَهَا، إِلاّ رَفَعهُ الله بِهَا دَرَجَةً وَحَطّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً**»[4].

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨) [٤٢٩].

(٢) حسن: أخرجه الترمذي [٢٣٩٦]، وابن ماجه [٤٠٣١]، وانظر: الصحيحة [١٤٦]. فأضاف هذا الحديث الحب مع الخيرية، فمن أحبهم الله واختارهم ابتلاهم، وهذا زيادة في القرب وزيادة في الرفعة.

(٣) أخرجه البخاري (١٠/ ١٠٣) فتح، ومسلم [٢٥٧٢]، وأحمد (٦/ ٨٨-١٢٠).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٤٢-٤٣)، ومسلم [٢٥٧٢]، والترمذي [٢٦٥].

أشد الناس بلاءً الأنبياء

٩- عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو موعُوكٌ قلت: مَنْ أشدُّ الناس بلاءً؟ قال: «**الأنبياء، ثم الصالحون، لقد كان أحدهم يُبْتَلى بالقمل حتى يقتلَهُ، ولأَحدُهُم كان أشدَّ فرحًا بالبلاء من أحدكم بالعطاء**»(١).

وفي رواية ابن ماجه: «عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: وضعتُ يدي على النبي ﷺ فوجدتُ الحُمّى شديدةً من فوق الثوب، فقلتُ: يا رسول الله، إنها عليك شديدةٌ، فقال: «**إنا كذلك معاشر الأنبياء يُضاعف لنا البلاء، كما يُضَاعَفُ الأجر**»، قلت: يا رسول الله، أي الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: «**الأنبياء**»، قلت: ثم مَنْ؟ قال: «**ثم الصالحون، وإن كان أحدُهم ليُبتلى حتى ما يجدُ إلاّ العباءة يجُوبُها، وإن كان أحدُهُم ليُبْتَلى بالقُمَّل، وإن كان ليفرح بالبلاء يُصيبُهُ كما يفرحُ أحدكم بالغائب أو بالرَّخاءِ**».

١٠- عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يُوعكُ وعكًا شديدًا، قال: «**إنّي أُوْعكُ وعك رجلين منكم**»، قلت: «**ذاك بأن لك أجرين**»(٢).

❁ ❁ ❁

---

(١) صحيح: أخرجه ابن سعد (٢/ ٢٠٨)، والبخاري في الأدب المفرد [٥١٠]، وابن ماجه [٤٠٢٤]، والطحاوي مشكل (٣/ ٦٤)، وغيرهم.

(٢) أخرجه البخاري (١٠/ ١١٠) فتح، ومسلم (٢٥٧١/ ٤٥)، وأحمد (١/ ٣٨١).

فضل من صبر على الصرع

١١ - عن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ مُسلم يُصْرَعُ صَرْعَةً مِنْ مَرَضٍ إِلَّا بُعث مِنْهَا طَاهِرًا»(١).

١٢ - عن عطاء بن أبي رباح قال: «قال ابن عباس: أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: هَذِهِ الْمَرْأَةُ السَّوْدَاءُ، أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: يا رسول الله، إِنِّي أُصْرَعُ وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ الله لِي، فَقَالَ: «إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ الله أَنْ يُعَافِيَكِ»، فَقَالَتْ: أَصْبِرُ، فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ الله أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ، فَدَعَا لَهَا»(٢).

قال الإمام المحقق ابن القيم في (زاد المعاد) (٤/٦٦-٧١): «قلت: الصرع صرعان: صرع من الأرواح الخبيثة الأرضية، وصرع من الأخلاط الرديئة. والثاني: هو الذي يتكلم فيه الأطباء في سببه وعلاجه، وأما صرع الأرواح، فأئمتهم وعقلاؤهم يعترفون به، ولا يدفعونه، ويعترفون بأن علاجه بمقابلة الأرواح الشريفة الخيرة العلوية لتلك الأرواح الشريرة الخبيثة، فتدافع آثارها، وتعارض أفعالها وتبطلها، وقد نص على ذلك بقراط في بعض كتبه، فذكر بعض علاج الصرع، وقال: هذا إنما ينفع من الصرع الذي سببه الأخلاط والمادة، وأما الصرع الذي يكون من الأرواح، فلا ينفع فيه هذا العلاج، وأما جهلة الأطباء وسَقَطُهم وسفلتهم، ومن يعتقد بالزندقة فضيلة، فأولئك ينكرون صرع الأرواح، ولا يقرون بأنها تؤثر في بدن المصروع، وليس معهم إلا الجهل، وإلا فليس في الصناعة الطبية ما يدفع ذلك، والحس والوجود شاهد به، وإحالتهم ذلك على غلبة بعض الأخلاط، هو صادق في بعض أقسامه لا في كلها.

---

(١) صحيح: أخرجه الطبراني [٧٤٨٥]، وابن أبي الدنيا في المرض والكفارات [٢٣]، والبيهقي في الشعب [٩٩٢٢]، وصححه المنذري والألباني.

(٢) أخرجه البخاري (١٠/ ١١٤)، ومسلم [٢٥٧٦]، وأحمد (١/ ٣٤٧)، وغيرهم.

وقدماء الأطباء كانوا يسمون هذا الصرع: المرض الإلهي، وقالوا: إنه من الأرواح، وأما جالينوس وغيره، فتأولوا عليهم هذه التسمية، وقالوا: إنما سموه بالمرض الإلهي لكون هذه العلة تحدث في الرأس، فتضر بالجزء الإلهي الطاهر الذي مسكنه الدماغ.

وهذا التأويل نشأ لهم من جهلهم بهذه الأرواح وأحكامها، وتأثيراتها، وجاءت زنادقة الأطباء فلم يثبتوا إلا صرع الأخلاط وحده.

ومن له عقل ومعرفة بهذه الأرواح وتأثيراتها يضحك من جهل هؤلاء وضعف عقولهم.

وعلاج هذا النوع يكون بأمرين: أمر من جهة المصروع، وأمر من جهة المعالج، فالذي من جهة المصروع يكون بقوة نفسه، وصدق توجهه إلى فاطر هذه الأرواح وبارئها، والتعوذ الصحيح الذي قد تواطأ عليه القلبُ واللسان، فإن هذا نوع محاربة، والمحارب لا يتم له الانتصاف من عدوه بالسلاح إلا بأمرين: أن يكون السلاح صحيحًا في نفسه جيدًا، وأن يكون الساعد قويًّا، فمتى تخلف أحدهما لم يُغنِ السلاح كثير طائل، فكيف إذا عدم الأمران جميعًا: يكون القلب خرابًا من التوحيد، والتوكل، والتقوى، والتوجه، ولا سلاح له، والثاني من جهة المعالج، بأن يكون فيه هذان الأمران أيضًا، حتى إن من المعالجين من يكتفي بقوله: «اخرج منه»، أو يقول: «بسم الله»، أو يقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، والنبي ﷺ كان يقول: «**اخرج عدو الله، أنا رسول الله**». وشاهدتُ شيخنا يرسل إلى المصروع من يخاطب الروح التي فيه، ويقول: قال لكِ الشيخ: اخرجي؛ فإن هذا لا يحل لك، فيفيق المصروع، وربما خاطبها بنفسه، وربما كانت الروح ماردة فيخرجها بالضرب، فيفيق المصروع ولا يحس بألم، وقد شاهدنا نحن وغيرنا منه ذلك مرارًا.

وكان كثيرًا ما يقرأ في أذن المصروع: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وحدثني أنه قرأها مرة في أذن المصروع، فقالت الروح: نعم، ومد بها صوته، قال: فأخذت له عصا، وضربته بها في عروق عنقه حتى كَلَّتْ يداي من الضرب، ولم يشك الحاضرون أنه يموت لذلك الضرب. ففي أثناء الضرب قالت: أنا أحبه، فقلت لها: هو لا يحبك، قالت: أنا أريد أن أحج به، فقلت لها: هو لا يريد أن يحج معك، فقالت: أنا أدعه كرامة لك، قال: قلت: لا ولكن طاعة لله ولرسوله، قالت: فأنا أخرج منه، قال: فقعد المصروع يلتفت يمينًا وشمالًا، وقال: ما جاء بي إلى حضرة الشيخ، قالوا له: وهذا الضرب كله؟ فقال: وعلى أي شيء يضربني الشيخ ولم أذنب، ولم يشعر بأنه وقع به ضرب ألبتة.

وكان يعالج بآية الكرسي، وكان يأمر بكثرة قراءتها المصروع ومن يعالجه بها، وبقراءة المعوذتين.

وبالجملة فهذا النوع من الصرع وعلاجه لا ينكره إلا قليل الحظ من العلم والعقل والمعرفة، وأكثر تسلط الأرواح الخبيثة على أهله تكون من جهة قلة دينهم، وخراب قلوبهم وألسنتهم من حقائق الذكر، والتعاويذ، والتحصينات النبوية والإيمانية، فتلقى الروح الخبيثة الرجل أعزل لا سلاح معه، وربما كان عريانًا فيؤثر فيه هذا.

ولو كشف الغطاء، لرأيت أكثر النفوس البشرية صرعى هذه الأرواح الخبيثة، وهي في أسرها وقبضتها تسوقها حيث شاءت، ولا يمكنها الامتناع عنها ولا مخالفتها، وبها الصرع الأعظم الذي لا يفيق صاحبه إلا عند المفارقة والمعاينة، فهناك يتحقق أنه كان هو المصروع حقيقة، وبالله المستعان.

وعلاج هذا الصرع باقتران العقل الصحيح إلى الإيمان بما جاءت به الرسل، وأن تكون الجنة والنار نصب عينيه وقبلة قلبه، ويستحضر أهل الدنيا، وحلول المثلات والآفات بهم، ووقوعها خلال ديارهم كمواقع القطر، وهم صرعى لا يفيقون، وما أشد داء هذا الصرع، ولكن لما عمت البلية به بحيث لا يرى إلا مصروعًا، لم يصر مستغربًا ولا مستنكرًا، بل صار لكثرة المصروعين عين المستنكر المستغرب خلافه.

فإذا أراد الله بعبد خيرًا أفاق من هذه الصرعة، ونظر إلى أبناء الدنيا مصروعين حوله يمينًا وشمالًا على اختلاف طبقاتهم، فمنهم من أطبق به الجنون، ومنهم من يفيق أحيانًا قليلة، ويعود إلى جنونه، ومنهم من يفيق مرة، ويجن أخرى، فإذا أفاق عَمِل أهل الإفاقة والعقل، ثم يعاوده الصرع فيقع في التخبط.

فصل

وأما صرع الأخلاط، فهو علة تمنع الأعضاء النفسية عن الأفعال والحركة والانتصاب منعًا غير تام، وسببه خلط غليظ لزج يسد منافذ بطون الدماغ سدة غير تامة فيمتنع نفوذ الحس والحركة فيه وفي الأعضاء نفوذًا تامًّا من غير انقطاع بالكلية، وقد تكون لأسباب أخر كريح غليظ يحتبس في منافذ الروح، أو بُخار رديء يرتفع إليه من بعض الأعضاء، أو كيفية لاذعة، فينقبض الدماغ لدفع المؤذي، فيتبعه تشنج في جميع الأعضاء، ولا يمكن أن يبقى الإنسان معه منتصبًا، بل يسقط ويظهر في فيه الزبد غالبًا.

وهذه العلة تعد من جملة الأمراض الحادة باعتبار وقت وجوده المؤلم خاصة، وقد تعد من جملة الأمراض المزمنة باعتبار طول مكثها، وعسر برئها، لاسيما إن تجاوز في السن خمسًا وعشرين سنة، وهذه العلة في دماغه، وخاصة في جوهره، فإن صرع هؤلاء يكون لازمًا. قال أبقراط: إن الصرع يبقى في هؤلاء حتى يموتوا.

إذا عرف هذا، فهذه المرأة التي جاء في الحديث أنها كانت تصرع وتتكشف، يجوز أن يكون صرعها من هذا النوع، فوعدها النبي ﷺ الجنة بصبرها على هذا المرض، ودعا لها أن لا تتكشف، وخيرها بين الصبر والجنة، وبين الدعاء لها بالشفاء من غير ضمان، فاختارت الصبر والجنة.

وفي ذلك دليل على جواز ترك المعالجة والتداوي، وأن علاج الأرواح بالدعوات والتوجه إلى الله يفعل ما لا يناله علاج الأطباء، وأن تأثيره وفعله، وتأثر الطبيعة عنه وانفعالها أعظم من تأثير الأدوية البدنية، وانفعال الطبيعة عنها، وقد جربنا هذا مرارًا نحن وغيرنا، وعقلاء الأطباء معترفون بأن لفعل القوى النفسية، وانفعالاتها، في شفاء الأمراض عجائب، وما على الصناعة الطبية أضر من زنادقة القوم، وسفلتهم،

وجهالهم. والظاهر: أن صرع هذه المرأة كان من هذا النوع، ويجوز أن يكون من جهة الأرواح، ويكون رسول الله ﷺ قد خيرها بين الصبر على ذلك مع الجنة، وبين الدعاء لها بالشفاء، فاختارت الصبر والستر، والله أعلم. اهـ

رجل لم يمرض قط

١٣- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: «هَلْ أَخَذَتْكَ أُمُّ مِلْدَمٍ قَطُّ؟»، قَالَ: وَمَا أُمُّ مِلْدَمٍ؟ قَالَ: «حَرٌّ يَكُونُ بَيْنَ الْجِلْدِ وَاللَّحْمِ»، قَالَ: مَا وَجَدْتُ هَذَا قَطُّ، قَالَ: «فَهَلْ صُدِعتَ قَطُّ؟»، قَالَ: وَمَا هَذَا الصُّدَعُ؟ قَالَ: «عِرقٌ يَضْرِبُ فِي الرَّأْسِ»، قَالَ: مَا وَجَدْتُ هَذَا قَطُّ، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّه أن ينظر إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا»[1].

وأخرجه الحارث بن أبي أسامة في (مسنده) عن أبي عثمان النهدي قال: دَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَعْرَابِيٌّ جَسِيمٌ -أَوْ جُسْمَانٌ عَظِيمٌ- فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «مَتَى عَهْدُكَ بِالْحُمَّى؟» قَالَ: لاَ أَعْرِفُهَا، قَالَ: «فَالصُّدَاعُ؟» قَالَ: لاَ أَدْرِي مَا هُوَ! قَالَ: «فَأُصِبْتَ بِمَالِكَ؟» قَالَ: لَا، قَالَ: «فَرُزِئْتَ بِوَلَدِكَ؟» قَالَ: لَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ الله يبغض الْعِفْرِيتَ النِّفْرِيتَ الَّذِي لاَ يُرزأ فِي وَلَدِهِ، وَلاَ يُصَابُ فِي مَالِهِ»[2].

مَثَل المؤمن ومَثَل المنافق

١٤- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي رضي الله عنه قال: «مَثَل المؤمن مَثَل خامة الزرع، لا تزال الريح تُميلُه، ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء، ومَثَل المنافق كمَثَل شجرة الأرز، لا تهتزُّ حتى تستحصد»[3].

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد [٤٩٥]، والنسائي في الكبرى [٣٥٣١٤]، وأحمد (٢/ ٣٣٢)، وابن حبان [٧٠٣]، والحاكم (١/ ٣٤٧)، وهو صحيح، وصححه الألباني.

(٢) مرسل إسناده صحيح.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣٤-٢٨٣)، والبخاري (١٠/ ١٠٣)، (١٣/ ٤٤٦)، ومسلم [٢٨٠٩]، والترمذي [٢٨٦٦] وغيرهم.

١٥- وعن كعب بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ خَامَةِ الزَّرْعِ تُفِيئُهَا الرِّيحُ تَصْرَعُهَا مَرَّةً وَتَعْدِلُهَا أُخْرَى حَتَّى تَهِيجَ، وَمَثَلُ الْكَافِرِ كَمَثَلِ الْأَرْزَةِ الْمُجْذِبَةِ عَلَى أُصُولِهَا لَا يُفِيئُهَا شَيْءٌ حَتَّى يَكُونَ انْجِعَافُهَا مَرَّةً وَاحِدَةً»(١).

أجر المسترجع على المصيبة

والمصيبة: مرض، أو صرع، أو سحر، أو لبس، أو حسد، أو موت، ويمكن لهذه الأمراض السابقة أن تؤدي إلى الموت وأسرعها إلى الموت هو الحسد، ثم السحر، ثم المرض، والصَّرَع.

١٦- عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللهُ تعالى: «إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أْجُرنِى فِى مُصِيبَتِى وَأَخْلِفْ لِى خَيْرًا مِنْهَا إلا أخلف الله له خيرًا منه»، قالت: فلما مات أبو سلمة قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ، ثم قُلتها، فأخلف الله لي رسول الله ﷺ(٢).

قال ابن القيم رحمه الله (٤/١٨٩-١٩٦) في هديه ﷺ في علاج حزّ المصيبة وحُزنها: «قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦-١٥٧]، وفي (المسند) عنه ﷺ أنه قال: «ما من أحدٍ تُصيبه مصيبة فيقول: إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أْجُرْنِى فِى مُصِيبَتِى وَأَخْلِفْ لِى خَيْرًا مِنْهَا، إلا أجاره الله في مصيبته، وأخلف له خيرًا منها».

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٥٤) والبخاري (١٠/ ١٠٣) ومسلم [٢٨١٠] والدارمي (٢/ ٣١٠).

(٢) أخرجه مالك (١/ ٢٣٦/ ٤٢)، وأحمد (٦/ ٣١٣-٣١٧)، ومسلم [٩١٨]، وأبو داود [٣١١٩]، وابن ماجه [١٥٩٨]، وغيرهم.

وهذه الكلمة من أبلغ علاج المصاب، وأنفعه له في عاجلته وآجلته؛ فإنها تتضمن أصلين عظيمين إذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلَّى عن مصيبته.

أحدهما - أن العبد وأهله وماله ملك لله عَزَّوَجَلَّ حقيقة، وقد جعله عند العبد عارية، فإذا أخذه منه، فهو كالمعير يأخذ متاعه من المستعير، وأيضًا فإنه محفوف بعدمين: عدم قبله، وعدم بعده، وملك العبد له متعة معارة في زمن يسير، وأيضًا فإنه ليس الذي أوجده عن عدمه، حتى يكون ملكه حقيقة، ولا هو الذي يحفظه من الآفات بعد وجوده، ولا يُبقي عليه وجوده، فليس له فيه تأثير، ولا ملك حقيقي، وأيضًا فإنه متصرف فيه بالأمر تصرف العبد المأمور المنهي، لا تصرف الملاك، ولهذا لا يباح له من التصرفات فيه إلا ما وافق أمر مالكه الحقيقي.

والثاني - أن مصير العبد ومرجعه إلى الله مولاه الحق، ولا بد أن يخلف الدنيا وراء ظهره، ويجيء ربه فردًا كما خلقه أوَّل مرة بلا أهل ولا مال ولا عشيرة، ولكن بالحسنات والسيئات، فإذا كانت هذه بداية العبد وما خُوِّله ونهايته، فكيف يفرح بموجود، أو يأسى على مفقود، ففكره في مبدئه ومعاده من أعظم علاج هذا الداء، ومن علاجه أن يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

ومن علاجه أن ينظر إلى ما أصيب به، فيجد ربه قد أبقى عليه مثله، أو أفضل منه، وادخر له -إن صبر ورضي- ما هو أعظم من فوات تلك المصيبة بأضعافٍ مُضاعفة، وأنه لو شاء لجعلها أعظم مما هي.

ومن علاجه أن يُطفئ نار مصيبته ببرد التأسي بأهل المصائب، وليعلم أنه في كل وادٍ بنو سعد، ولينظر يمنة، فهل يرى إلا محنة؟ ثم ليعطف يسرة، فهل يرى إلا حسرة؟، وأنه لو فتش العالم لم ير فيهم إلا مبتلى، إما بفوات محبوب، أو حصول مكروه، وأن شرور الدنيا أحلام نوم أو كظل زائل، إن ضحكت قليلًا، أبكت كثيرًا، وإن سَرَّت يومًا، ساءت دهرًا، وإن متعت قليلًا، منعت طويلًا، وما ملأت دارًا خيرة إلا ملأتها عبرة، ولا سرته بيومِ سرور إلا خبأت له يومَ شرور، قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لكل فرحة ترحة، وما مُلئ بيت فرحًا إلا ملئ ترحًا. وقال ابن سيرين: ما كان ضَحِك قطُّ إلا كان من بعده بُكاء.

وقالت هند بنت النعمان: لقد رأيتنا ونحن من أعز الناس وأشدهم ملكًا، ثم لم تغب الشمس حتى رأيتنا ونحن أقل الناس، وأنه حق على الله ألاَّ يملأ دارًا خيرة إلا ملأها عبرة.

وسألها رجل أن تحدثه عن أمرها، فقالت: أصبحنا ذا صباح، وما في العرب أحد إلا يرجونا، ثم أمسينا وما في العرب أحد إلا يرحمنا.

وبكت أختها حرقة بنت النعمان يومًا، وهي في عزها، فقيل لها: ما يبكيك، لعل أحدًا آذاك؟ قالت: لا، ولكن رأيت غضارة في أهلي، وقلما امتلأت دارٌ سرورًا إلا امتلأت حُزنًا.

قال إسحاق بن طلحة: دخلتُ عليها يومًا، فقلت لها: كيف رأيت عبرات الملوك؟ فقالت: ما نحنُ فيه اليوم خير مما كنا فيه الأمس، إنا نجد في الكتب أنه ليس من أهل بيت يعيشون في خيرة إلا سيُعقَبون بعدها عبرة، وأن الدهر لم يظهر لقوم بيوم يحبونه إلا بطن لهم بيوم يكرهونه، ثم قالت:

فبينا نَسُوسُ الناس والأمر أمرنا ... إذا نحن فيهم سوقة نتنصف

فأفٍّ لدنيا لا يدوم نعيمها ... تقلب تارات بنا وتصرف

ومن علاجها أن يعلم أن الجزع لا يردها، بل يضاعفها، وهو في الحقيقة من تزايد المرض.

ومن علاجها أن يعلم أن فوت ثواب الصبر، والتسليم، وهو الصلاةُ والرحمة والهداية التي ضمنها الله على الصبر، والاسترجاع، أعظم من المصيبة في الحقيقة.

ومن علاجها أن يعلم أن الجزع يشمت عدوه، ويسوء صديقه، ويغضب ربه، ويسر شيطانه، ويحبط أجره، ويضعف نفسه، وإذا صبر واحتسب أنضى شيطانه، ورده خاسئًا، وأرضى ربه، وسر صديقه، وساء عدوه، وحمل عن إخوانه، وعزاهم هو قبل أن يعزوه، فهذا هو الثبات والكمال الأعظم، لا لطم الخدود، وشق الجيوب، والدعاء بالويل والثبور، والسخط على المقدور.

ومن علاجها أن يعلم أن ما يُعقبه الصبرُ والاحتساب من اللذة والمسرة أضعاف ما كان يحصل له ببقاء ما أصيب به لو بقي عليه، ويكفيه من ذلك بيت الحمد الذي يُبنى له في الجنة على حمده لربه واسترجاعه، فلينظر: أي المصيبتين أعظم؟ مصيبة العاجلة، أو مصيبة فوات بيت الحمد في جنة الخلد. وفي (الترمذي) مرفوعًا: «**يَوَدّ نَاسٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ تُقْرَضُ بِالْمَقَارِيضِ فِي الدّنْيَا لِمَا يَرَوْنَ مِنْ ثَوَابِ أَهْلِ الْبَلَاءِ**».

وقال بعض السلف: «لولا مصائب الدنيا لوردنا القيامة مفاليس».

ومن علاجها أن يروِّح قلبه بروح رجاء الخُلْف من الله؛ فإنه من كل شيء عوض إلا الله، فما منه عوض كما قيل:

من كل شيء إذا ضيعته عوض ... وما من الله إن ضيعته عوض

ومن علاجها: أن يعلم أن حظه من المصيبة ما تحدثه له، فمن رضي، فله الرضى، ومن سخط، فله السخط، فحظك منها ما أحدثته لك، فاختر خير الحظوظ أو شرها،

فإن أحدثت له سخطًا وكفرًا، كتب في ديوان الهالكين، وإن أحدثت له جزعًا وتفريطًا في ترك واجب، أو فعل محرم، كتب في ديوان المفرطين، وإن أحدثت له شكاية، وعدم صبر، كتب في ديوان المغبونين، وإن أحدثت له اعتراضًا على الله، وقدحًا في حكمته، فقد قرع باب الزندقة أو ولجه، وإن أحدثت له صبرًا وثباتًا لله، كتب في ديوان الصابرين، وإن أحدثت له الرضى عن الله، كتب في ديوان الراضين، وإن أحدثت له الحمد والشكر، كتب في ديوان الشاكرين، وكان تحت لواء الحمد مع الحمَّادين، وإن أحدثت له محبة واشتياقًا إلى لقاء ربه، كتب في ديوان المحبين المخلصين.

وفي (مسند الإمام أحمد) و(الترمذي) من حديث محمود بن لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرفعه: «**وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاَهُم فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ**» زاد أحمد: «**ومن جزع فله الجزع**».

ومن علاجها أن يعلم أنه وإن بلغ في الجزع غايته، فآخر أمره إلى صبر الاضطرار، وهو غير محمود ولا مثاب. قال بعض الحكماء: العاقل يفعل في أول يوم من المصيبة ما يفعله الجاهل بعد أيام، ومن لم يصبر صبر الكرام، سلا سُلُوَّ البهائم، وفي (الصحيح) مرفوعًا: «**الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولى**».

وقال الأشعث بن قيس: إنك إن صبرت إيمانًا واحتسابًا، وإلا سلوت سلو البهائم.

ومن علاجها أن يعلم أن أنفع الأدوية له موافقة ربه وإلهه فيما أحبه ورضيه له، وأن خاصية المحبة وسرها موافقة المحبوب، فمن ادعى محبة محبوب، ثم سخط ما يحبه، وأحب ما يسخطه، فقد شهد على نفسه بكذبه، وتمقت إلى محبوبه.

وقال أبو الدرداء: إن الله إذا قضى قضاء، أحب أن يرضى به، وكان عمران بن حصين يقول في علته: أَحَبُّه إليَّ أَحَبُّه إليه، وكذلك قال أبو العالية.

وهذا دواء وعلاج لا يعمل إلا مع المحبين، ولا يمكن كل أحد أن يتعالج به.

ومن علاجها أن يوازن بين أعظم اللذتين، والتمتعين، وأدومهما. لذة تمتعه بما أصيب به، ولذة تمتعه بثواب الله له، فإن ظهر له الرجحان، فآثر الراجح، فليحمد الله على توفيقه، وإن آثر المرجوح من كل وجه، فليعلم أن مصيبته في عقله وقلبه ودينه أعظم من مصيبته التي أصيب بها في دنياه.

ومن علاجها أن يعلم أن الذي ابتلاه بها أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين؛ وأنه سبحانه لم يرسل إليه البلاء ليهلكه به، أو ليعذبه به، أو ليجتاحه، وإنما افتقده به ليمتحن صبره ورضاه عنه وإيمانه، وليسمع تضرعه وابتهاله، وليراه طريحًا ببابه، لائذًا بجنابه، مكسور القلب بين يديه، رافعًا قصص الشكوى إليه.

قال الشيخ عبد القادر: يا بني، إن المصيبة ما جاءت لتهلكك، وإنما جاءت لتمتحن صبرك وإيمانك، يا بني! القدر سبع، والسبع لا يأكل الميتة.

والمقصود: أن المصيبة كِير العبد الذي يسبك به حاصله، فإما أن يخرج ذهبًا أحمر، وإما يخرج خبثًا كله، كما قيل:

سبكناه ونحسبه لجينا ... فأبدى الكِير عن خبث الحديد

فإن لم ينفعه هذا الكير في الدنيا، فبين يديه الكير الأعظم، فإذا علم العبد أن إدخاله كير الدنيا ومسبكها خير له من ذلك الكير والمسبك، وأنه لابد من أحد الكيرين، فليعلم قدر نعمة الله عليه في الكير العاجل.

ومن علاجها أن يعلم أنه لولا محن الدنيا ومصائبها، لأصاب العبد -من أدواء الكبر والعجب والفرعنة وقسوة القلب- ما هو سبب هلاكه عاجلًا وآجلًا، فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقده في الأحيان بأنواع من أدوية المصائب، تكون حمية له من هذه الأدواء، وحفظًا لصحة عبوديته، واستفراغًا للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة منه، فسبحان من يرحم ببلائه، ويبتلي بنعمائه، كما قيل:

قَدْ يُنْعِمُ اللهُ بِالبَلْوى وإنْ عَظُمَتْ ... ويَبْتَلي اللهُ بَعْضَ القَوْمِ بالنِّعَمِ

فلولا أنه -سبحانه- يداوي عباده بأدوية المحن والابتلاء، لطغوا، وبغوا وعتوا، والله -سبحانه- إذا أراد بعبد خيرًا سقاه دواء من الابتلاء والامتحان على قدر حاله يستفرغ به من الأدواء المهلكة، حتى إذا هذبه ونقاه وصفَّاه، أهله لأشرف مراتب الدنيا، وهي عبوديته، وأرفع ثواب الآخرة، وهو رؤيته وقربه.

وَمِنْ عِلَاجِهَا أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ مَرَارَةَ الدُّنْيَا هِيَ بِعَيْنِهَا حَلَاوَةُ الْآخِرَةِ، يَقْلِبُهَا اللهُ سُبْحَانَهُ كَذَلِكَ، وَحَلَاوَةَ الدُّنْيَا بِعَيْنِهَا مَرَارَةُ الْآخِرَةِ، وَلَأَنْ يَنْتَقِلَ مِنْ مَرَارَةٍ مُنْقَطِعَةٍ إِلَى حَلَاوَةٍ دَائِمَةٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ عَكْسِ ذَلِكَ، فَإِنْ خَفِيَ عَلَيْكَ هَذَا، فَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ: «**حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**».

وَفِي هَذَا الْمَقَامِ تَفَاوَتَتْ عُقُولُ الْخَلَائِقِ، وَظَهَرَتْ حَقَائِقُ الرِّجَالِ، فَأَكْثَرُهُمْ آثَرَ الْحَلَاوَةَ الْمُنْقَطِعَةَ عَلَى الْحَلَاوَةِ الدَّائِمَةِ الَّتِي لَا تَزُولُ، وَلَمْ يَحْتَمِلْ مَرَارَةَ سَاعَةٍ لِحَلَاوَةِ الْأَبَدِ، وَلَا ذُلَّ سَاعَةٍ لِعِزِّ الْأَبَدِ، وَلَا مِحْنَةَ سَاعَةٍ لِعَافِيَةِ الْأَبَدِ، فَإِنَّ الْحَاضِرَ عِنْدَهُ شَهَادَةٌ، وَالْمُنْتَظَرَ غَيْبٌ، وَالْإِيمَانُ ضَعِيفٌ، وَسُلْطَانُ الشَّهْوَةِ حَاكِمٌ، فَتَوَلَّدَ مِنْ ذَلِكَ إِيثَارُ الْعَاجِلَةِ، وَرَفْضُ الْآخِرَةِ، وَهَذَا حَالُ النَّظَرِ الْوَاقِعِ عَلَى ظَوَاهِرِ الْأُمُورِ، وَأَوَائِلِهَا وَمَبَادِئِهَا، وَأَمَّا النَّظَرُ الثَّاقِبُ الَّذِي يَخْرِقُ حُجُبَ الْعَاجِلَةِ، وَيُجَاوِزُهُ إِلَى الْعَوَاقِبِ وَالْغَايَاتِ فَلَهُ شَأْنٌ آخَرُ.

فَادْعُ نَفْسَكَ إِلَى مَا أَعَدَّ اللهُ لِأَوْلِيَائِهِ وَأَهْلِ طَاعَتِهِ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ وَالسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ، وَالْفَوْزِ الْأَكْبَرِ، وَمَا أَعَدَّ لِأَهْلِ الْبِطَالَةِ وَالْإِضَاعَةِ مِنَ الْخِزْيِ وَالْعِقَابِ وَالْحَسَرَاتِ الدَّائِمَةِ، ثُمَّ اخْتَرْ أَيَّ الْقِسْمَيْنِ أَلْيَقَ بِكَ، وَكُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ، وَكُلُّ أَحَدٍ يَصْبُو إِلَى مَا يُنَاسِبُهُ، وَمَا هُوَ الْأَوْلَى بِهِ، وَلَا تَسْتَطِلْ هَذَا الْعِلَاجَ، فَشِدَّةُ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ مِنَ الطَّبِيبِ وَالْعَلِيلِ دَعَتْ إِلَى بَسْطِهِ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ» اهـ.

الداء من قدر الله عَزَّوَجَلَّ

١٧- عن ابن أبي خُزامة عن أبيه قال: قلتُ: يا رسول الله، أرأيتَ دَوَاءً نَتَدَاوَى به، ورُقًى نَسترقي بها، وتُقًى نتَّقيها، أتَرُدُّ مِن قَدَرِ الله شيئًا؟ قال: «إنها من قَدَر الله عَزَّوَجَلَّ»(١).

ما أنزل الله من داء إلا وله دواء

١٨- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال رسول الله ﷺ: «مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً إِلا قَدْ أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً»(٢).

١٩- عن أسامة بن شريك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَ الله لم يُنْزِل دَاءً، إِلاَّ أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً إِلاَّ الْهَرَمَ»(٣).

٢٠- عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يُنْزِلْ دَاءً، إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ»(٤).

لكل داء دواء

٢١- عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ، فَإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأَ بِإِذْنِ اللهِ تَعالى»(٥).

قال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ في (زاد المعاد) (٤/١٥-١٧) بعد ذكر بعض أحاديث هذا الباب: «فقد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات، وإبطال قول

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (٣/ ٤٢١)، والترمذي، وابن ماجه، وهو حسن.

(٢) أخرجه البخاري (١٠/ ١٣٤) فتح، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٥٩)، وابن ماجه [٤٣٣٩].

(٣) صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٨)، والطيالسي [١٢٣٢]، والحميدي [٨٢٤]، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٦٠)، والبخاري في الأدب المفرد [٢٩١]، وأبو داود [٣٨٥٥]، والنسائي [٧٥٥٣-٧٥٥٤]، والترمذي [٢٠٣٨]، وابن ماجه [٣٤٣٦]، وغيرهم، وصححه الألباني.

(٤) صحيح: أخرجه أحمد (١/ ٣٧٧، ٤١٣)، والحميدي [٩٠]، وابن ماجه [٣٤٣٨]، وغيرهم، وصححه الألباني.

(٥) [أخرجه أحمد (٣/ ٣٣٥)، ومسلم [٢٢٠٤]، وابن حبان [٦٠٦٣]، وغيرهم].

من أنكرها، ويجوز أن يكون قوله: «لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ»، على عمومه حتى يتناول الأدواء القاتلة، والأدواء التي لا يمكن لطبيب أن يبرئها، ويكون الله عَزَّوَجَلَّ قد جعل لها أدوية تبرئها، ولكن طوى علمها عن البشر، ولم يجعل لهم إليه سبيلًا؛ لأنه لا علم للخلق إلا ما علمهم الله، ولهذا علق النبي ﷺ الشفاء على مصادفة الدواء للداء، فإنه لا شيء من المخلوقات إلا له ضِد، وكل داء له ضد من الدواء يعالج بضده، فعلق النبي ﷺ البُرْءَ بموافقة الداء للدواء، وهذا قدر زائد على مجرد وجوده؛ فإن الداء متى جاوز درجة الداء في الكيفية، أو زاد في الكمية على ما ينبغي، نقله إلى داء آخر، ومتى قصر عنها لم يفِ بمقاومته، وكان العلاج قاصرًا، ومتى لم يقع المداوي على الداء، أو لم يقع الدواء على الداء، لم يحصل الشفاء، ومتى لم يكن الزمان صالحًا لذلك الدواء، لم ينفع، ومتى كان البدن غير قابل له، أو القوة عاجزة عن حمله، أو ثَم مانع من تأثيره، لم يحصل البرء لعدم المصادفة، ومتى تمت المصادفة حصل البرء بإذن الله ولا بد، وهذا أحسن المحملين في الحديث.

والثاني – أن يكون من العام المراد به الخاص، لا سيما والداخل في اللفظ أضعاف أضعاف الخارج منه، وهذا يُستعمل في كل لسان، ويكون المرادُ أن الله لم يضع داءً يقبل الدواء إلا وضع له دواء، فلا يدخل في هذا الأدواء التي لا تقبل الدواء، وهذا كقوله تعالى في الريح التي سلطها على قوم عاد: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥] أي: كل شيء يقبل التدمير، ومن شأن الريح أن تدمره، ونظائره كثيرة.

ومن تأمل خلق الأضداد في هذا العالم، ومقاومة بعضها لبعض، ودفع بعضها ببعض، وتسليط بعضها على بعض، تبين له كمال قدرة الرب تعالى، وحكمته، وإتقانه ما صنعه، وتفرده بالربوبية، والوحدانية، والقهر، وأن كل ما سواه فله ما يُضاده ويمانعه، كما أنه الغني بذاته، وكل ما سواه محتاج بذاته.

وفي الأحاديث الصحيحة الأمر بالتداوي، وأنه لا ينافي التوكل، كما لا ينافى دفع داء الجوع، والعطش، والحر، والبرد بأضدادها، بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدرًا وشرعًا، وأن تعطيلها يقدح في نفس التوكل، كما يقدح في الأمر والحكمة، ويضعفه من حيث يظن معطلها أن تركها أقوى في التوكل، فإن تركها عجزًا ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه، ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب، وإلا كان معطلًا للحكمة والشرع، فلا يجعل العبد عجزه توكلًا، ولا توكله عجزًا.

وفيها رد على من أنكر التداوي، وقال: إن كان الشفاء قد قُدر، فالتداوي لا يفيد، وإن لم يكن قد قدر، فكذلك، وأيضًا، فإن المرض حصل بقدر الله، وقدر الله لا يدفع ولا يرد، وهذا السؤال هو الذي أورده الأعراب على رسول الله ﷺ. وأما أفاضل الصحابة، فأعلم بالله وحكمته وصفاته من أن يوردوا مثل هذا، وقد أجابهم النبي ﷺ بما شفى وكفى، فقال: هذه الأدوية والرقى والتقى هي من قدر الله، فما خرج شيء من قدره، بل يُرَدُّ قدره بقدره، وهذا الردُّ من قدره، فلا سبيل إلى الخروج عن قدره بوجه ما، وهذا كردِّ قدر الجوع، والعطش، والحر، والبرد بأضدادها، وكردِّ قدر العدو بالجهاد، وكلٌّ من قدر الله: الدافع والمدفوع والدفع.

ويقال لمورِد هذا السؤال: هذا يوجب عليك أن لا تباشر سببًا من الأسباب التي تجلب بها منفعة، أو تدفع بها مضرة؛ لأن المنفعة والمضرة إن قدرتا، لم يكن بد من وقوعهما، وإن لم تقدرًا لم يكن سبيل إلى وقوعهما، وفي ذلك خراب الدين والدنيا، وفساد العالم، وهذا لا يقوله إلا دافع للحق، معاند له، فيذكر القدر ليدفع حجة المحق عليه، كالمشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] و: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [النحل: ٣٥]، فهذا قالوه دفعًا لحجة الله عليهم بالرسل.

وجواب هذا السائل أن يقال: بقي قسم ثالث لم تذكره، وهو أن الله قدر كذا وكذا بهذا السبب، فإن أتيت بالسبب حصل المسبب، وإلا فلا.

فإن قال: إن كان قدر لي السبب، فعلته، وإن لم يقدره لي لم أتمكن من فعله.

قيل: فهل تقبل هذا الاحتجاج من عبدك، وولدك، وأجيرك إذا احتج به عليك فيما أمرته به، ونهيته عنه فخالفك؟ فإن قبلته، فلا تَلُمْ من عصاك، وأخذ مالك، وقذف عرضك، وضيع حقوقك، وإن لم تقبله، فكيف يكون مقبولًا منك في دفع حقوق الله عليك؟! وقد روي في أثر إسرائيلي: أن إبراهيم الخليل قال: «**يا رب ممن الداء؟**» قال: «**مني**»، قال: «**فممن الدواء؟**»، قال: «**مني**»، قال: «**فما بال الطبيب؟**»، قال: «**رجلٌ أُرسل الدواء على يديه**».

وفي قوله ﷺ: «**لكل داءٍ دواء**» تقوية لنفس المريض والطبيب، وحث على طلب ذلك الدواء والتفتيش عليه، فإن المريض إذا استشعرت نفسه أن لدائه دواء يزيله، تعلق قلبه بروح الرجاء، وبردت عنده حرارة اليأس، وانفتح له باب الرجاء، ومتى قويت نفسه انبعثت حرارته الغريزية، وكان ذلك سببًا لقوة الأرواح الحيوانية والنفسانية والطبيعية، ومتى قويت هذه الأرواح، قويت القوى التي هي حاملة لها، فقهرت المرض ودفعته.

وكذلك الطبيب إذا علم أن لهذا الداء دواء أمكنه طلبه والتفتيش عليه. وأمراض الأبدان على وزان أمراض القلوب، وما جعل الله للقلب مرضًا إلا جعل له شفاء بضده، فإن علمه صاحب الداء واستعمله، وصادف داء قلبه، أبرأه بإذن الله تعالى» اهـ.

فصل في التداوي

١- التداوي بالعسل:

٢٢- عن عاصم بن عمر بن قتادة قال: جاءنا جابر بن عبد الله رضي الله عنه في أهلنا ورجل يشتكي خُراجًا -أو به جراحًا- فقال: ما تشتكي؟ قال: خُرَّاج بي قد شقَّ عليَّ، فقال: يا غلامُ، ائتني بحجَّام، فقال له: ما تصنعُ بالحجَّام يا أبا عبد الله؟ قال: أريد أن أعلِّق فيه محجمًا، قال: والله إن الذُّباب ليصيبني، أو يُصيبني الثوب فيؤذيني ويَشُقُّ عليَّ، فلما رأى تبرُّمَهُ من ذلك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنْ كَانَ فِى أَدْوِيَتِكُمْ خَيْرٌ - أَوْ يَكُونُ - فَفِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ، أَوْ لَذْعَةٍ بِنَارٍ تُوَافِقُ دَاءَ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَكْتَوِي»(١).

وزاد بعضهم فقال: «فجاء بحجَّام فشرطه، فذهب عنه ما يجد».

٢٣- وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «الشِّفَاءُ فِي ثَلَاثٍ: شَرْبَةِ عَسَلٍ، وَشَرْطَةِ مِحْجَمٍ، وَكَيَّةِ نَارٍ، وَأَنَا أَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الْكَيِّ»(٢).

٢٤- وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ شِفَاءٌ فَفِي ثَلَاثٍ: فِي شَرْبَةِ عَسَلٍ، أَوْ شَرْطَةٍ مِنْ مِحْجَمٍ، أَوْ كَيَّةٍ مِنْ نَارٍ يُصِيبُ أَلَمًا، وَأَنَا أَكْرَهُ الْكَيَّ، وَلَا أُحِبُّهُ»(٣).

٢٥- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: إِنَّ أَخِي اسْتَطْلَقَ بَطْنُهُ، فَقَالَ رسول الله ﷺ: «اسْقِهِ عَسَلًا» فَسَقَاهُ، ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: إِنِي سَقَيْتُهُ عَسَلًا فَلَمْ يَزِدْهُ إِلَّا اسْتِطْلَاقًا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اسْقِهِ عَسَلًا» فَقَالَ لَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ جَاءَ الرَّابِعة، فَقَالَ: «اسْقِهِ عَسَلًا» فَقَالَ: قَدْ سَقَيْتُهُ فَلَمْ يَزِدْهُ إِلَّا اسْتِطْلَاقًا، فَقَالَ

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٤٣)، والبخاري (١٠/ ١٣٩-١٥٣، ١٥٤)، ومسلم [٢٢٠٥].

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٤٥-٢٤٦)، والبخاري (١٠/ ١٣٦-١٣٧) فتح، وابن ماجه [٣٤٩١]، وغيرهم.

(٣) صحيح: أخرجه أحمد [١٤٧٤]، وأبو يعلى (٣/ ٣٠٠)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٧٩٦)، وغيرهم.

رَسُولُ الله ﷺ: «صَدَقَ الله وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ»، فَسَقَاهُ فَبَرَأَ[١].

٢٦- وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «عَلَيْكُمْ بِالشِّفَائَيْنِ: الْعَسَلِ وَالْقُرْآنِ»[٢].

قال ابن القيم رحمه الله (٤/٣٣-٣٦): «والعسل فيه منافع عظيمة؛ فإنه جلاء للأوساخ التي في العروق والأمعاء وغيرها، محلل للرطوبات أكلًا وطِلاءً، نافع للمشايخ وأصحاب البلغم، ومن كان مزاجه باردًا رطبًا، وهو مغذٍّ ملين للطبيعة، حافظ لقوى المعاجين ولما استودع فيه، مذهب لكيفيات الأدوية الكريهة، مُنَقٍّ للكبد والصدر، مدرٌّ للبول، موافق للسعال الكائن عن البلغم، وإذا شرب حارًّا بدُهن الورد، نفع من نهش الهوام، وشرب الأفيون، وإن شرب وحده ممزوجًا بماء نفع من عضة الكلب الكَلِب، وأكل الفطر القتال، وإذا جعل فيه اللحم الطري، حفظ طراوته ثلاثة أشهر، وكذلك إن جُعل فيه القثاء، والخيار، والقرع، والباذنجان، ويحفظ كثيرًا من الفاكهة ستة أشهر، ويحفظ جثة الموتى، ويُسمى الحافظ الأمين. وإذا لطخ به البدن المقمل والشعر، قتل قمله وصئبانه، وطوَّل الشعر، وحسنه، ونعَّمه، وإن اكتحل به، جلا ظلمة البصر، وإن استن به، بيض الأسنان وصقلها، وحفظ صحتها، وصحة اللثة، ويفتح أفواه العروق، ويدر الطمث، ولعقه على الريق يذهب البلغم، ويغسل حمل المعدة، ويدفع الفضلات عنها، ويسخنها تسخينًا معتدلًا، ويفتح سددها، ويفعل ذلك بالكبد والكلى والمثانة، وهو أقل ضررًا لسدد الكبد والطحال من كل حلو.

---

(١) أخرجه البخاري (١٠/ ١٣٩-١٦٨) فتح، ومسلم [٢٢١٧]، والترمذي [٢٠٨٢]، وأحمد (٣/ ١٩، ٩٢) وأبو يعلى [١٢٦١] وغيرهم.

(٢) إسناده صحيح موقوف: أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٤٤٥)، وأبو عبيد في فضائل القرآن (٢/ ١)، والحاكم (٤/ ٢٠٠)، وقال الحافظ في الفتح (١٠/ ١٧٠): رجاله رجال الصحيح، وجاء مرفوعًا عنه، أخرجه ابن ماجه [٣٤٥٢]، والحاكم (٤/ ٢٠٠)، والبيهقي (٩/ ٣٤٤)، وفي الشعب [٢٣٤٥]، ولا يصح.

ومع هذا كله مأمون الغائلة، قليل المضار، مضر بالعرض للصفراويين، ودفعها بالخل ونحوه، فيعود حينئذ نافعًا له جدًّا.

وهو غذاء مع الأغذية، ودواء مع الأدوية، وشراب مع الأشربة، وحلو مع الحلوى، وطلاء مع الأطلية، ومفرح مع المفرحات، فما خلق لنا شيء في معناه أفضل منه، ولا مثله، ولا قريبًا منه، ولم يكن معول القدماء إلا عليه، وأكثر كتب القدماء لا ذكر فيها للسكر البتة، ولا يعرفونه، فإنه حديث العهد حدث قريبًا، وكان النبي ﷺ يشربه بالماء على الريق، وفي ذلك سر بديع في حفظ الصحة لا يدركه إلا الفطن الفاضل، وسنذكر ذلك إن شاء الله عند ذكر هديه في حفظ الصحة.

وفي (سنن ابن ماجه) مرفوعًا من حديث ابي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ لَعِقَ الْعَسَلَ ثَلَاثَ غَدَوَاتٍ كُلَّ شَهْرٍ، لَمْ يُصِبْهُ عَظِيمٌ مِنَ الْبَلَاءِ»، وَفِي أَثَرٍ آخَرَ: «عَلَيْكُمْ بِالشِّفَاءَيْنِ: الْعَسَلِ وَالْقُرْآنِ» فَجَمَعَ بَيْنَ الطِّبِّ الْبَشَرِيِّ وَالْإِلَهِيِّ، وَبَيْنَ طِبِّ الْأَبْدَانِ، وَطِبِّ الْأَرْوَاحِ، وَبَيْنَ الدَّوَاءِ الْأَرْضِيِّ وَالدَّوَاءِ السَّمَائِيِّ.

إِذَا عُرِفَ هَذَا، فَهَذَا الَّذِي وَصَفَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ الْعَسَلَ، كَانَ اسْتِطْلَاقُ بَطْنِهِ عَنْ تُخَمَةٍ أَصَابَتْهُ عَنِ امْتِلَاءٍ، فَأَمَرَهُ بِشُرْبِ الْعَسَلِ لِدَفْعِ الْفُضُولِ الْمُجْتَمِعَةِ فِي نَوَاحِي الْمَعِدَةِ وَالْأَمْعَاءِ، فَإِنَّ الْعَسَلَ فِيهِ جِلَاءٌ، وَدَفْعٌ لِلْفُضُولِ، وَكَانَ قَدْ أَصَابَ الْمَعِدَةَ أَخْلَاطٌ لَزِجَةٌ، تَمْنَعُ اسْتِقْرَارَ الْغِذَاءِ فِيهَا لِلُزُوجَتِهَا، فَإِنَّ الْمَعِدَةَ لَهَا خَمْلٌ كَخَمْلِ الْقَطِيفَةِ، فَإِذَا عَلِقَتْ بِهَا الْأَخْلَاطُ اللَّزِجَةُ، أَفْسَدَتْهَا وأفسدت الغذاء، فدواؤها بما يَجْلُوهَا مِنْ تِلْكَ الْأَخْلَاطِ، وَالْعَسَلُ جِلَاءٌ، وَالْعَسَلُ مِنْ أَحْسَنِ مَا عُولِجَ بِهِ هَذَا الدَّاءُ، لَاسِيَّمَا إِنْ مُزِجَ بِالْمَاءِ الْحَارِّ.

وفي تكرار سقيه العسل معنى طبي بديع، وهو أن الدواء يجب أن يكون له مقدار وكمية بحسب حال الداء، إن قصر عنه، لم يزله بالكلية، وإن جاوزه، أوهى القوى،

فأحدث ضررًا آخر، فلما أمره أن يسقيه العسل، سقاه مقدارًا لا يفي بمقاومة الداء، ولا يبلغ الغرض، فلما أخبره، علم أن الذي سقاه لا يبلغ مقدار الحاجة، فلما تكرر ترداده إلى النبي ﷺ، أكَّد عليه المعاودة ليصل إلى المقدار المقاوم للداء، فلما تكررت الشربات بحسب مادة الداء، برأ، بإذن الله. واعتبار مقادير الأدوية، وكيفياتها، ومقدار قوة المرض والمريض من أكبر قواعد الطب.

وفي قوله ﷺ: «صَدَقَ اللهُ وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ» إشارة إلى تحقيق نفع هذا الدواء، وأن بقاء الداء ليس لقصور الدواء في نفسه، ولكن لكذب البطن، وكثرة المادة الفاسدة فيه، فأمره بتكرار الدواء لكثرة المادة.

وليس طبه كطب الأطباء؛ فإن طب النبي ﷺ متيقَّن قطعي إلهي، صادر عن الوحي، ومشكاة النبوة، وكمال العقل، وطب غيره أكثره حَدْس وظنون، وتجارِب، ولا ينكر عدم انتفاع كثير من المرضى بطب النبوة؛ فإنه إنما ينتفع به من تلقاه بالقبول، واعتقاد الشفاء به، وكمال التلقي له بالإيمان والإذعان، فهذا القرآن الذي هو شفاء لما في الصدور -إن لم يتلق هذا التلقي- لم يحصل به شفاءُ الصدور من أدوائها، بل لا يزيد المنافقين إلا رجسًا إلى رجسهم، ومرضًا إلى مرضهم، وأين يقع طب الأبدان منه، فطب النبوة لا يناسب إلا الأبدان الطيبة، كما أن شفاء القرآن لا يُناسب إلا الأرواح الطيبة والقلوب الحية، فإعراض الناس عن طب النبوة كإعراضهم عن الاستشفاء بالقرآن الذي هو الشفاء النافع، وليس ذلك لقصور في الدواء، ولكن لخُبث الطبيعة، وفساد المحل، وعدم قبوله، والله الموفق.

فصل

وقد اختلف الناس في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [النحل: ٦٩]، هل الضمير في «فيه» راجع إلى الشراب، أو راجع إلى القرآن؟ على قولين: الصحيح: رجوعه إلى الشراب، وهو قول ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، وقتادة، والأكثرين؛ فإنه هو المذكور، والكلام سيق لأجله، ولا ذكر للقرآن في الآية، وهذا الحديث الصحيح وهو قول: «**صدق الله**» كالصريح فيه، والله تعالى أعلم.

«قال بعض العلماء بالطب: كان هذا الرجل عنده فضلات، فلما سقاه عسلًا -وهو حارٌّ- تحللت، فأسرعت في الاندفاع، فزاد إسهاله، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره، وهو مصلحة لأخيه، ثم سقاه فازداد التحليل والدفع، ثم سقاه فكذلك، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن استمسك بطنه، وصلح مزاجه، واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام»[(١)].

والغريب حقًّا أن الأطباء في الأزمنة الغابرة كانوا يرون أن العسل يسبب تليين البطن، ولذا فإنه لا يصلح لمعالجة الإسهال، وقد استنكر ابن خلدون في مقدمته مداواة المبطون بالعسل، واعتبر أن حدوث الشفاء هو من التأثير النفسي لإيمان الصحابي رضي الله عنه، وليس راجعًا لخصائص العسل. إلا أن الطب الحديث قد أثبت فائدة العسل في معالجة التهاب المعدة والأمعاء (النزلات المعوية)، عند الأطفال، وقد تبين من خلال دراسة نشرتها المجلة الطبية البريطانية عام ١٩٨٥م، فائدة العسل في علاج الإسهال الناتج عن غزو بكتيري، وكانت النتائج جيدة في هذا الصدد، وقد سبق ذلك دراسة نُشرت في

(١) تفسير ابن كثير من كتاب التحصينات ص [٢٢٩].

أعمال مؤتمر الطب الإسلامي عام ١٩٨٢م، حول معالجة الإسهال المزمن بالعسل، وقد أكدت الدراسة فائدة العسل في علاج المبطون»[١].

هذا؛ وليس العسل مداويًا لما ذكر وحسب، لكن ثبت أيضًا فعاليته في معالجة صنوف عديدة من الأمراض، منها: الزكام والوقاية منه، ومعالجة أمراض الجهاز التنفسي، والتهاب الأنف التحسسي، وقد صُنِّف في تفصيل الاستدواء بالعسل مصنفات كُثُر، من كتب وأبحاث ومقالات[٢].

وبالجملة، فإن العسل -كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ-: «غذاء مع الأغذية، ودواء مع الأدوية، وشراب مع الأشربة، وحلو مع الحلوى، وطلاء مع الأطلية، ومفرح مع المفرحات، فما خلق لنا شيءٌ في معناه أفضل منه، ولا مثله، ولا قريبًا منه»[٣].

ومن لطائف المعنى في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨]، أن الملحوظ في شأن النحل ميلها عمومًا إلى وضع بيوتها فيما ارتفع وعلا من الأماكن، فقمم الجبال وأعالي الشجر وأسقف البيوت وما يعرش فيها من الكروم وغيرها، تعتبر لديها المواضع الأمثل لتجميع العسل؛ حيث تتخذ بيوتًا تبني فيها الشمع بأجنحتها بصورة خلايا محكمة مقسمة سداسيًّا غاية في الإتقان، ثم تقيء العسل في هذه الخلايا، ثم تصبح إلى مراعيها تستجود منها الأحسن والأنفع، مبتعدة في هذا الجو العظيم والبراري الشاسعة، والأودية السحيقة، والجبال الشاهقة، ثم تعود منها إلى موضعها وبيتها ومالها فيه من فراخ وعسل، لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة[٤].

---

(١) الرسالة الذهبية في الطب النبوي ص [١٧٠-١٧١].

(٢) انظر الاستشفاء بالعسل لحسان شمس باشا.

(٣) الطب النبوي ص [٢٥] كما سبق.

(٤) تفسير ابن كثير.

٢- التداوي بالحبة السوداء:

٢٧- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ فِي الْحَبَّةِ السَّوْدَاءِ شِفَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ إِلا السَّامَ»، السَّامُ: هو الموتُ[1].

وفي رواية: «إِنَّ الشونيز ينفع بإذن الله عَزَّوَجَلَّ من كل داءٍ إلاّ الموت»

نقل الحافظ في (الفتح) (١٠/١٤٥) عن الخطابي أنه قال: «إن هذا من العام الذى يرادُ به الخاص».

ويوضحه ما قاله بعضهم أن النبي ﷺ كان يصف الدواء بحسب ما يشاهده من حال المريض، فلعلَّ قوله في الحبة السوداء وافق مرض مَن مزاجه باردٌ فيكون معنى قوله: «شفاء من كل داء» أي: من هذا الجنس الذى وقع القول فيه، والتخصيص بالحيثية كثيرٌ شائعٌ».

ورد ابن أبي جمرة هذا التخصيص بقوله: «تكلم الناس في هذا الحديث وخصّوا عمومه، وردّوه إلى قول أهل الطب والتجربة، ولا خفاء بغلط قائل ذلك؛ لأنا إذا صدقنا أهل الطب -ومدارُ علمهم غالبًا إنما هو على التجربة التي بناؤها على ظن غالب، فتصديق من لا ينطق عن الهوى أولى بالقبول من كلامهم».

وكيفية العلاج بها نلخصه في الآتي:

١- تُغلى لمدة عشر دقائق على نار هادئة وتحلى بالعسل لعلاج الأمراض الصدرية والحساسية، والحلق، والمعدة، والكلى، ولزيادة المناعة في الجسم.

٢- تعصر فتكون زيتًا، لعلاج حساسية الأنف بالدهان أو بالتنقيط، أو تطحن وتشم، أو تُسَفّ.

---

(١) أخرجه البخاري (١٠/١٤٣) فتح، ومسلم [٢٢١٥]، والترمذي [٢٠٤١]، وابن ماجه [٣٤٤٧]، وأحمد (٢/ ٢٤١-٢٦٨).

٣- تخلط بعسل النحل سواء الزيت أو الحب المطحون لعلاج الكبد بجميع أمراضه، والكلى، وتقوية الجهاز المناعي في الجسم.

ولو خلطت على العسل مع الزيت وزيت الزيتون كان أنفع بإذن الله تعالى لعلاج السحر وما ينجم عنه من أضرار معوية.

ويستعمل زيت حبة البركة مع زيت الزيتون مع عصير الليمون لعلاج الصلع الناتج من الحرق، وغيره، ومن الثعلبة، وأكثر الأمراض الجلدية.

ومنذ أكثر من ربع قرن وأنا أعالج السحر أو اللمس بالخليط المكون من العسل وزيت حبة البركة، وحبة البركة المطحونة، وزيت الزيتون فوجدته نافعًا جدًّا، وأن الله تعالى قد غرز فيه النفع لهذه الأمراض، ومن أراد المزيد في هذا الباب فليطلبه من مظانِّه، والله أعلم.

٣- التداوي بماء زمزم:

٢٨- عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ»[(١)]. ويكفي في فضل ماء زمزم أن الله تعالى أمر الملائكة أن تغسل به صدر النبي ﷺ وتهيئه للنبوة ثم تهيئه للعروج إليه.

قال الحافظ في «الفتح» (٤٦٠/١) (٤٨١/١٣): لقد شُقَّ صدره الشريف ﷺ وغُسل قلبه الطهور بماء زمزم أربع مرات: أولها - وقد مضى من عمره أربع سنوات.

وثانيها - وقد مضى عشر سنوات، وثالثها - حين نُبِّئ. ورابعها: ليلة أُسري به ﷺ».

٢٩- عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال عن ماء زمزم: «إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ، إِنَّهَا طَعَامُ طُعْمٍ»[(٢)].

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد والبيهقي وابن ماجه، انظر: الصحيحة [٨٨٣].

(٢) أخرجه أحمد [٢١٨٥٨]، ومسلم [٢٤٧٣]، وزاد الطيالسي: «وشِفَاءُ سُقْمٍ».

٣٠- وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «خَيْرُ ماءٍ على وَجْهِ الأَرْضِ ماءُ زَمْزَمَ فِيهِ طَعامٌ مِنَ الطُّعْمِ، وشِفاءٌ مِنَ السُّقْمِ...»[١] الحديث.

٣١- وفي رواية: «فَإِنْ شَرِبْتَهُ تَسْتَشْفِي بِهِ شَفَاكَ الله، وَإِنْ شَرِبْتَهُ مُسْتَعِيذًا أَعَاذَكَ الله، وَإِنْ شَرِبْتَهُ لِتَقْطَعَ ظَمَأَكَ قَطَعَهُ الله»، وهي عند الحاكم (١/ ٤٧٣) وصححها.

٣٢- وقد «حمل رسول الله ﷺ زمزمَ في الأداوي والقِرب، وكان عليه الصلاة والسلام يَصُبُّ مِنهُ على المرضى ويسقيهم»[٢].

٣٣- وعن عائشة رضي الله عنها: أنها كانت تحمل ماء زمزم وتخبر أن رسول الله ﷺ كان يحملُهُ»[٣].

٣٤- وكان يرسل ﷺ في طلبه من مكة وهو في المدينة، وقد كتب إلى سُهيل ابن عمرو رضي الله عنه: «إنْ جاءك كتابي هذا ليلًا فلا تُصبحنَّ، وإن جاءك نهارًا فلا تُمسينَّ حتى تبعث إليَّ بماء زمزم، فملأ له مزادتين وبعث بهما على بعير»[٤].

٣٥- وكان رسول الله ﷺ يداوي بها من الحُمى ويقول، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن الحُمَّى فَوْرٌ من فَوْرِ جَهَنَّمَ؛ فأَطْفِئُوها عنكم بماء زَمْزَمَ»[٥].

قال ابن القيم رحمه الله (٤/ ٢٥-٣٢): «قَدْ أَشْكَلَ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ جَهَلَةِ الْأَطِبَّاءِ، وَرَأَوْهُ مُنَافِيًا لِدَوَاءِ الْحُمَّى وَعِلَاجِهَا، وَنَحْنُ نُبَيِّنُ بِحَوْلِ الله وَقُوَّتِهِ وَجْهَهُ وَفِقْهَهُ، فَنَقُولُ:

---

(١) صحيح: أخرجه الطبراني في الأوسط، وابن حبان والضياء. انظر: الصحيحة [١٠٥٦].

(٢) صحيح: أخرجه البيهقي (٥/ ٢٠٢)، والفاكهي في أخبار مكة (٢/ ٤٩)، وانظر: الصحيحة [٨٨٣].

(٣) أخرجه الترمذي [٩٦٣]، وانظر: الصحيح منه للألباني [٧٦٩].

(٤) حسن: أخرجه عبدالرزاق (٥/ ١١٩)، والبيهقي (٥/ ٢٠٢)، وحسنه السخاوي في المقاصد ص [٣٦٠]، وكذلك الألباني.

(٥) أخرجه البخاري [٣٣٠١٦] فتح، وأحمد (١/ ٢٩١)، وأبو يعلى [٢٧٣٢]، وابن حبان [٦٠٦٨]، والطحاوي مشكل (٢/ ٢٤٦)، والطبراني في الكبير [١٢٩٦٧].

خِطَابُ النبيّ ﷺ نَوْعَانِ: عَامّ لِأَهْلِ الْأَرْضِ، وَخَاصّ بِبَعْضِهِمْ، فَالْأَوّلُ - كَعَامّةِ خِطَابِهِ، وَالثّانِي - كَقَوْلِهِ: «**لَا تَسْتَقْبِلُوا الْقِبْلَةَ بِغَائِطٍ وَلَا بَوْلٍ، وَلَا تَسْتَدْبِرُوهَا وَلَكِنْ شَرّقُوا أَوْ غَرّبُوا**» فَهَذَا لَيْسَ بِخِطَابٍ لِأَهْلِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَا الْعِرَاقِ، ولكن لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَا عَلَى سَمْتِهَا كَالشّامِ وَغَيْرِهَا، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: «**مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ قِبْلَةٌ**».

وإذا عُرف هذا، فخطابه في هذا الحديث خاص بأهل الحجاز، وما والاهم؛ إذ كان أكثر الحميات التي تعرض لهم من نوع الحمى اليومية العرضية الحادثة عن شدة حرارة الشمس، وهذه ينفعها الماء البارد شربًا واغتسالًا، فإن الحمى حرارة غريبة تشتعل في القلب، وتنبث منه بتوسط الروح والدم في الشرايين والعروق إلى جميع البدن، فتشتعل فيه اشتعالًا يضر بالأفعال الطبيعية، وهي تنقسم إلى قسمين: عرضية: وهي الحادثة إما عن الورم، أو الحركة، أو إصابة حرارة الشمس، أو القيظ الشديد، ونحو ذلك.

ومرضية وهي ثلاثة أنواع، وهى لا تكون إلا في مادة أولى، ثم منها يسخن جميع البدن. فإن كان مبدأ تعلقها بالروح سميت حمى يوم؛ لأنها في الغالب تزول في يوم، ونهايتها ثلاثة أيام، وإن كان مبدأ تعلقها بالأخلاط سميت عفنية، وهى أربعة أصناف: صفراوية، وسوداوية، وبلغمية، ودموية. وإن كان مبدأ تعلقها بالأعضاء الصلبة الأصلية، سميت حمى دِق، وتحت هذه الأنواع أصناف كثيرة.

وقد ينتفع البدن بالحمى انتفاعًا عظيمًا لا يبلغه الدواء، وكثيرًا ما يكون حمى يوم، وحمى العفن سببًا لإنضاج مواد غليظة لم تكن تنضج بدونها، وسببًا لتفتح سدد لم يكن تصل إليها الأدوية المفتحة.

وأما الرمد الحديث والمتقادم، فإنها تبرئ أكثر أنواعه برءًا عجيبًا سريعًا، وتنفع من الفالج، واللقوة، والتشنج الامتلائي، وكثير من الأمراض الحادثة عن الفضول الغليظة.

وقال لي بعض فضلاء الأطباء: إن كثيرًا من الأمراض نستبشر فيها بالحمى، كما يستبشر المريض بالعافية، فتكون الحمى فيه أنفع من شرب الدواء بكثير، فإنها تنضج من الأخلاط والمواد الفاسدة ما يضر بالبدن، فإذا أنضجتها صادفها الدواء متهيئة للخروج بنضاجها، فأخرجها، فكانت سببًا للشفاء.

وإذا عرف هذا، فيجوز أن يكون مراد الحديث من أقسام الحميات العرضية، فإنها تسكن على المكان بالانغماس في الماء البارد، وسقي الماء البارد المثلوج، ولا يحتاج صاحبها مع ذلك إلى علاج آخر، فإنها مجرد كيفية حارة متعلقة بالروح، فيكفي في زوالها مجرد وصول كيفية باردة تسكنها، وتخمد لهبها من غير حاجة إلى استفراغ مادة، أو انتظار نضج.

ويجوز أن يراد به جميع أنواع الحميات، وقد اعترف فاضل الأطباء جالينوس: بأن الماء البارد ينفع فيها، قال في المقالة العاشرة من كتاب «حيلة البرء»: ولو أن رجلًا شابًّا حسن اللحم، خصب البدن في وقت القيظ، وفي وقت منتهى الحمى، وليس في أحشائه ورم، استحم بماء بارد، أو سبح فيه، لانتفع بذلك، قال: ونحن نأمر بذلك بلا توقف.

وقال الرازي في (كتابه الكبير): إذا كانت القوة قوية، والحمَّى حادة جدًّا، والنضج بين ولا ورم في الجوف، ولا فتق، ينفع الماء البارد شربًا، وإن كان العليل خصب البدن والزمان حارٌّ، وكان معتادًا لاستعمال الماء البارد من خارج، فليؤذن فيه.

وقوله: «**الحمى من فيح جهنم**»، وهو شدة لهبها، وانتشارها،ونظيره: قوله: «**شدة الحر من فيح جهنم**»، وفيه وجهان: **أحدهما** - أن ذلك أنموذج ورقيقة اشتقت من جهنم ليستدل بها العباد عليها، ويعتبروا بها، ثم إن الله سبحانه قدر ظهورها بأسباب تقتضيها، كما أن الروح والفرح والسرور واللذة من نعيم الجنة أظهرها الله في هذه الدار عبرة ودلالة، وقدر ظهورها بأسباب توجبها.

والثاني- أن يكون المراد التشبيه، فشبه شدة الحمى ولهبها بفيح جهنم، وشبه شدة الحر به أيضًا تنبيهًا للنفوس على شدة عذاب النار، وأن هذه الحرارة العظيمة مشبهة بفيحها، وهو ما يصيب من قرب منها من حرها.

وقوله «**فأبردوها**» رُوِي بوجهين: بقطع الهمزة وفتحها، رباعي: من أبرد الشيء: إذا صيره باردًا، مثل أسخنه: إذا صيره سخنًا.

الثالث - بهمزة الوصل مضمومة من برد الشيء يبرده، وهو أفصح لغة واستعمالًا، والرباعي لغة رديئة عندهم قال:

إذا وجدت لهيب الحب في كبدي أقبلت نحو سقاء القوم أبترد

هَبْني بَردْتُ ببرد الماء ظَاهِرَه فَمنْ لِنَارٍ عَلى الأَحْشَاءِ تتَّقِدُ

وقوله «بالماء» فيه قولان: أحدهما - أنه كل ماء وهو الصحيح.

والرابع - أنه ماء زمزم، واحتج أصحاب هذا القول بما رواه البخاري في (صحيحه) عن أبي حمزة نصر بن عمران الضبعي، قال: كنت أجالس ابن عباس بمكة، فأخذتني الحمى، فقال: أبردها عنك بماء زمزم، فإن رسول الله ﷺ قال: «**الْحُمّى مِنْ فَيْحِ جَهَنّمَ فَأَبْرِدُوهَا بِالْمَاءِ، أَوْ قَالَ: بِمَاءِ زَمْزَمَ**» وراوي هذا قد شك فيه، ولو جزم به لكان أمرًا لأهل مكة بماء زمزم؛ إذ هو متيسر عندهم، ولغيرهم بما عندهم من الماء.

ثم اختلف من قال: إنه على عمومه، هل المراد به الصدقة بالماء، أو استعماله؟ على قولين. والصحيح أنه استعمال، وأظن أن الذى حمل من قال: المراد الصدقة به أنه أشكل عليه استعمال الماء البارد في الحمَّى، ولم يفهم وجهه مع أن لقوله وجهًا حسنًا، وهو أن الجزاء من جنس العمل، فكما أخمد لهيب العطش عن الظمآن بالماء البارد، أخمد الله لهيب الحمى عنه جزاء وفاقًا، ولكن هذا يؤخذ من فقه الحديث وإشارته، وأما المراد به فاستعماله.

وقد ذكر أبو نعيم وغيره من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرفعه: «إِذَا حُمَّ أَحَدُكُمْ، فَلْيَرُشَّ عَلَيْهِ الْمَاءَ الْبَارِدَ ثَلَاثَ لَيَالٍ مِنَ السَّحَرِ».

وفي (سنن ابن ماجه) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرفعه: «الْحُمَّى كِيرٌ مِنْ كِيرِ جَهَنَّمَ، فَنَحُّوهَا عَنْكُمْ بِالْمَاءِ الْبَارِدِ».

وفي (المسند) وغيره، من حديث الحسن، عن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرفعه: «الْحُمَّى قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ، فَأَبْرِدُوهَا عَنْكُمْ بِالْمَاءِ الْبَارِدِ»، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا حُمَّ دَعَا بِقِرْبَةٍ مِنْ مَاءٍ فَأَفْرَغَهَا عَلَى رَأْسِهِ فَاغْتَسَلَ.

وفي (السُّنن) من حديث أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ذُكِرَتِ الْحُمَّى عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَسَبَّهَا رَجُلٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَسُبَّهَا؛ فَإِنَّهَا تَنْفِي الذُّنُوبَ، كَمَا تَنْفِي النَّارُ خَبَثَ الْحَدِيدِ».

لما كَانَتْ الْحُمَّى يَتْبَعُهَا حمية عَنْ الْأَغْذِيَةِ الرَّدِيئَةِ، وَتَنَاوُلِ الْأَغْذِيَةِ وَالْأَدْوِيَةِ النَّافِعَةِ، وَفِي ذَلِكَ إِعَانَةٌ عَلَى تَنْقِيَةِ الْبَدَنِ، وَنَفْيُ أَخْبَاثِهِ وَفُضُولِهِ، وَتَصْفِيَتِهِ مِنْ مَوَادِّهِ الرَّدِيئَةِ، وَتَفْعَلُ فِيهِ كَمَا تَفْعَلُ النَّارُ فِي الْحَدِيدِ فِي نَفْيِ خَبَثِهِ، وَتَصْفِيَةِ جَوْهَرِهِ، كَانَتْ أَشْبَهَ الْأَشْيَاءِ بِنَارِ الْكِيرِ الَّتِي تُصَفِّي جَوْهَرَ الْحَدِيدِ، وَهَذَا الْقَدْرُ هُوَ الْمَعْلُومُ عِنْدَ أَطِبَّاءِ الْأَبْدَانِ.

وَأَمَّا تَصْفِيَتُهَا الْقَلْبَ مِنْ وَسَخِهِ وَدَرَنِهِ، وَإِخْرَاجُهَا خَبَائِثَهُ، فَأَمْرٌ يَعْلَمُهُ أَطِبَّاءُ الْقُلُوبِ، وَيَجِدُونَهُ كَمَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَلَكِنْ مَرَضُ الْقَلْبِ إِذَا صَارَ مَأْيُوسًا مِنْ بُرْئِهِ، لَمْ يَنْفَعْ فِيهِ هَذَا الْعِلَاجُ.

فَالْحُمَّى تَنْفَعُ الْبَدَنَ وَالْقَلْبَ، وَمَا كَانَ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ فَسَبُّهُ ظُلْمٌ وَعُدْوَانٌ، وَذَكَرْتُ مَرَّةً وَأَنَا مَحْمُومٌ قَوْلَ بَعْضِ الشُّعَرَاءِ يَسُبُّهَا:

زَارَتْ مُكَفِّرَةُ الذُّنُوبِ وَوَدَّعَتْ ... تَبًّا لَهَا مِنْ زَائِرٍ وَمُوَدِّعِ

قَالَتْ وَقَدْ عَزَمَتْ عَلَى تَرْحَالِهَا ... مَاذَا تُرِيدُ فَقُلْتُ أَنْ لَا تَرْجِعِي

فَقُلْت: تَبًّا لَهُ إذْ سَبَّ مَا نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ سَبِّهِ، وَلَوْ قَالَ:

زَارَتْ مُكَفِّرَةُ الذُّنُوبِ لِصَبِّهَا ... أَهْلاً بِهَا مِنْ زَائِرٍ وَمُوَدِّعِ

قَالَتْ وَقَدْ عَزَمَتْ عَلَى تَرْحَالِهَا ... مَاذَا تُرِيدُ فَقُلْتُ: أَنْ لَا تُقْلِعِي

لكان أولى به، ولأقلعت عنه، فأقلعت عني سريعًا. وقد رُوي في أثر لا أعرف حاله: «حُمّى يَوْمٍ كَفّارَةُ سَنَةٍ»، وَفِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا - أَنّ الْحُمّى تَدْخُلُ فِي كُلّ الْأَعْضَاءِ وَالْمَفَاصِلِ، وَعِدّتُهَا ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتّونَ مَفْصِلًا، فَتُكَفّرُ عَنْهُ - بِعَدَدِ كُلّ مَفْصِلٍ - ذُنُوبَ يَوْمٍ. وَالثّانِي- أَنّهَا تُؤَثّرُ فِي الْبَدَنِ تَأْثِيرًا لَا يَزُولُ بِالْكُلّيّةِ إلَى سَنَةٍ، كَمَا قِيلَ فِي قَوْلِهِ ﷺ: «مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا»: إنّ أَثَرَ الْخَمْرِ يَبْقَى فِي جَوْفِ الْعَبْدِ وَعُرُوقِهِ وَأَعْضَائِهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَاَللهُ أَعْلَمُ.

قال أبو هريرة: مَا مِنْ مَرَضٍ يُصِيبُنِي أَحَبّ إلَيّ مِنْ الْحُمّى؛ لأنها تَدْخُلُ فِي كُلّ عُضْوٍ مِنّي، وَإِنّ اللهَ سُبْحَانَهُ يُعْطِي كُلّ عُضْوٍ حَظّهُ مِنْ الْأَجْرِ.

وقد روى الترمذي في (جامعه) من حديث رافع بن خديج يرفعه: «إذَا أَصَابَتْ أَحَدَكُمْ الْحُمّى -وَإِنّ الْحُمّى قِطْعَةٌ مِنْ النّارِ- فَلْيُطْفِئْهَا بِالْمَاءِ الْبَارِدِ، وَيَسْتَقْبِلْ نَهَرًا جَارِيًا، فَلْيَسْتَقْبِلْ جَرْيَةَ الْمَاءِ بَعْدَ الْفَجْرِ وَقَبْلَ طُلُوعِ الشّمْسِ، وَلْيَقُلْ: بِسْمِ اللهِ اللّهُمّ اشْفِ عَبْدَك، وَصَدّقْ رَسُولَك، وَيَنْغَمِسُ فِيهِ ثَلَاثَ غَمَسَاتٍ ثَلَاثَةَ أَيّامٍ، فَإِنْ بَرِئَ، وَإِلّا فَفِي خَمْسٍ، فَإِنْ لَمْ يَبْرَأْ فِي خَمْسٍ، فَسَبْعٌ، فَإِنْ لَمْ يَبْرَأْ فِي سَبْعٍ فَتِسْعٌ، فَإِنّهَا لَا تَكَادُ تُجَاوِزُ تِسْعًا بِإِذْنِ اللهِ».

قُلْت: وَهُوَ يَنْفَعُ فِعْلُهُ فِي فَصْلِ الصّيْفِ فِي الْبِلَادِ الْحَارّةِ عَلَى الشّرَائِطِ الّتِي تَقَدّمَتْ، فَإِنّ الْمَاءَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَبْرَدُ مَا يَكُونُ لِبُعْدِهِ عَنْ مُلَاقَاةِ الشّمْسِ، وَوُفُورِ الْقُوَى فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لما أَفَادَهَا النّومُ، وَالسّكُونُ، وَبَرْدُ الْهَوَاءِ، فَتَجْتَمِعُ فِيهِ قُوّةُ الْقُوَى، وَقُوّةُ الدّوَاءِ، وَهُوَ الْمَاءُ الْبَارِدُ عَلَى حَرَارَةِ الْحُمّى الْعَرَضِيّةِ، أَوْ الْغِبّ الْخَالِصَةِ، أَعْنِي الّتِي لَا وَرَمَ مَعَهَا، وَلَا شَيْءَ مِنْ الْأَعْرَاضِ الرّدِيئَةِ وَالْمَوَادّ الْفَاسِدَةِ، فَيُطْفِئُهَا بِإِذْنِ اللهِ، لَاسِيّمَا فِي أَحَدِ الْأَيّامِ

الْمَذْكُورَةِ فِي الْحَدِيثِ، وَهِيَ الْأَيَّامُ الَّتِي يَقَعُ فِيهَا بُحْرَانُ الْأَمْرَاضِ الْحَادَّةِ كَثِيرًا، سِيَّمَا فِي الْبِلَادِ الْمَذْكُورَةِ لِرِقَّةِ أَخْلَاطِ سُكَّانِهَا وَسُرْعَةِ انْفِعَالِهِمْ عَنِ الدَّوَاءِ النَّافِعِ.

وأقول: لقد جربت ماء زمزم في علاج المس والسحر فوجدته نافعًا جدًّا بإذن الله تعالى، على أن ينوي المريض الشفاء وهو يغتسل به أو يشرب منه، ويستحضر النية عند استعماله وأن يكون مصدقًا بكلام رسول الله ﷺ وأخباره.

٤- التداوي بالعجوة:

٣٦- عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ تَصَبَّحَ بِسَبْعِ تَمَرَاتٍ عَجوةٍ، لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ سُمٌّ وَلَا سِحْرٌ**»(١).

قال ابن القيم رحمه الله (٤/٩٧-١٠١): «وَالتَّمْرُ غِذَاءٌ فَاضِلٌ حَافِظٌ لِلصِّحَّةِ لَاسِيَّمَا لِمَنْ اعْتَادَ الْغِذَاءَ بِهِ، كَأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَغَيْرِهِمْ، وَهُوَ مِنْ أَفْضَلِ الْأَغْذِيَةِ فِي الْبِلَادِ الْبَارِدَةِ وَالْحَارَّةِ الَّتِي حَرَارَتُهَا فِي الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ، وَهُوَ لَهُمْ أَنْفَعُ مِنْهُ لِأَهْلِ الْبِلَادِ الْبَارِدَةِ، لِبُرُودَةِ بَوَاطِنِ سُكَّانِهَا، وَحَرَارَةِ بَوَاطِنِ سُكَّانِ الْبِلَادِ الْبَارِدَةِ، وَلِذَلِكَ يُكْثِرُ أَهْلُ الْحِجَازِ وَالْيَمَنِ وَالطَّائِفِ، وَمَا يَلِيهِمْ مِنَ الْبِلَادِ الْمُشَابِهَةِ لَهَا مِنَ الْأَغْذِيَةِ الْحَارَّةِ مَا لَا يَتَأَتَّى لِغَيْرِهِمْ، كَالتَّمْرِ وَالْعَسَلِ، وَشَاهَدْنَاهُمْ يَضَعُونَ فِي أَطْعِمَتِهِمْ مِنَ الْفُلْفُلِ وَالزَّنْجَبِيلِ فَوْقَ مَا يَضَعُهُ غَيْرُهُمْ نَحْوَ عَشَرَةِ أَضْعَافٍ أَوْ أَكْثَرَ، وَيَأْكُلُونَ الزَّنْجَبِيلَ كَمَا يَأْكُلُ غَيْرُهُمْ الْحَلْوَى، وَلَقَدْ شَاهَدْتُ مَنْ يَتَنَقَّلُ بِهِ مِنْهُمْ كَمَا يَتَنَقَّلُ بِالنَّقْلِ، وَيُوَافِقُهُمْ ذَلِكَ وَلَا يَضُرُّهُمْ لِبُرُودَةِ أَجْوَافِهِمْ، وَخُرُوجِ الْحَرَارَةِ إِلَى ظَاهِرِ الْجَسَدِ، كَمَا تُشَاهَدُ مِيَاهُ الْآبَارِ تَبْرُدُ فِي الصَّيْفِ، وَتَسْخَنُ فِي الشِّتَاءِ، وَكَذَلِكَ تُنْضِجُ الْمَعِدَةُ مِنَ الْأَغْذِيَةِ الْغَلِيظَةِ فِي الشِّتَاءِ مَا لَا تُنْضِجُهُ فِي الصَّيْفِ.

وَأَمَا أَهْلُ الْمَدِينَةِ، فَالتَّمْرُ لَهُمْ يَكَادُ أَنْ يَكُونَ بِمَنْزِلَةِ الْحِنْطَةِ لِغَيْرِهِمْ، وَهُوَ قُوتُهُمْ وَمَادَّتُهُمْ، وَتَمْرُ الْعَالِيَةِ مِنْ أَجْوَدِ أَصْنَافِ تَمْرِهِمْ؛ فَإِنَّهُ مَتِينُ الْجِسْمِ، لَذِيذُ الطَّعْمِ، صَادِقُ

---

(١) أخرجه البخاري (٩/ ٥٦٩) (١٠/ ٢٣٨)، ومسلم [٢٠٤٧]، وأبو داود [٣٨٧٥]، وأحمد (١/ ١٨١)، والحميدي [٧٠]، وغيرهم.

الْحَلَاوَةِ، وَالتَّمْرُ يَدْخُلُ فِي الْأَغْذِيَةِ وَالْأَدْوِيَةِ وَالْفَاكِهَةِ، وَهُوَ يُوَافِقُ أَكْثَرَ الْأَبْدَانِ، مُقَوٍّ لِلْحَارِّ الْغَرِيزِيِّ، وَلَا يَتَوَلَّدُ عَنْهُ مِنَ الْفَضَلَاتِ الرَّدِيئَةِ مَا يَتَوَلَّدُ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَغْذِيَةِ وَالْفَاكِهَةِ، بَلْ يَمْنَعُ لِمَنْ اعْتَادَهُ مِنْ تَعَفُّنِ الْأَخْلَاطِ وَفَسَادِهَا.

وَهَذَا الْحَدِيثُ مِنَ الْخِطَابِ الَّذِي أُرِيدَ بِهِ الْخَاصّ، كَأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ جَاوَرَهُمْ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ لِلْأَمْكِنَةِ اخْتِصَاصًا بِنَفْعِ كَثِيرٍ مِنَ الْأَدْوِيَةِ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ دُونَ غَيْرِهِ، فَيَكُونُ الدَّوَاءُ الَّذِي قَدْ يَنْبُتُ فِي هَذَا الْمَكَانِ نَافِعًا مِنَ الدَّاءِ، وَلَا يُوجَدُ فِيهِ ذَلِكَ النَّفْعُ إِذَا نَبَتَ فِي مَكَانٍ غَيْرِهِ لِتَأْثِيرِ نَفْسِ التُّرْبَةِ أَوِ الْهَوَاءِ، أَوْ هُمَا جَمِيعًا، فَإِنَّ لِلْأَرْضِ خَوَاصّ وَطَبَائِعَ يُقَارِبُ اخْتِلَافُهَا اخْتِلَافَ طَبَائِعِ الْإِنْسَانِ، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّبَاتِ يَكُونُ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ غِذَاءً مَأْكُولًا، وَفِي بَعْضِهَا سَمًّا قَاتِلًا، وَرُبَّ أَدْوِيَةٍ لِقَوْمٍ أَغْذِيَةٌ لِآخَرِينَ، وَأَدْوِيَةٍ لِقَوْمٍ مِنْ أَمْرَاضٍ هِيَ أَدْوِيَةٌ لِآخَرِينَ فِي أَمْرَاضٍ سِوَاهَا، وَأَدْوِيَةٍ لِأَهْلِ بَلَدٍ لَا تُنَاسِبُ غَيْرَهُمْ، وَلَا تَنْفَعُهُمْ.

وَأَمَّا خَاصِّيَّةُ السَّبْعِ، فَإِنَّهَا قَدْ وَقَعَتْ قَدَرًا وَشَرْعًا، فَخَلَقَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ السَّمَاوَاتِ سَبْعًا، وَالْأَرَضِينَ سَبْعًا، وَالْأَيَّامَ سَبْعًا، وَالْإِنْسَانُ كَمُلَ خَلْقُهُ فِي سَبْعَةِ أَطْوَارٍ، وَشَرَعَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِعِبَادِهِ الطَّوَافَ سَبْعًا، وَالسَّعْيَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ سَبْعًا، وَرَمْيَ الْجِمَارِ سَبْعًا سَبْعًا، وَتَكْبِيرَاتِ الْعِيدَيْنِ سَبْعًا فِي الْأُولَى.

وَقَالَ ﷺ: «مُرُوهُمْ بِالصَّلَاةِ لِسَبْعٍ، وَإِذَا صَارَ لِلْغُلَامِ سَبْعُ سِنِينَ خُيِّرَ بَيْنَ أَبَوَيْهِ»، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: «أَبُوهُ أَحَقّ بِهِ مِنْ أُمِّهِ»، وَفِي ثَالِثَةٍ: «أُمُّهُ أَحَقّ بِهِ»، وَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ فِي مَرَضِهِ أَنْ يُصَبَّ عَلَيْهِ مِنْ سَبْعِ قِرَبٍ، وَسَخَّرَ اللهُ الرِّيحَ عَلَى قَوْمِ عَادٍ سَبْعَ لَيَالٍ، وَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُعِينَهُ اللهُ عَلَى قَوْمِهِ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ، وَمَثَّلَ اللهُ سُبْحَانَهُ مَا يُضَاعِفُ بِهِ صَدَقَةَ الْمُتَصَدِّقِ بِحَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ، وَالسَّنَابِلُ الَّتِي رَآهَا صَاحِبُ يُوسُفَ سَبْعًا، وَالسِّنِينَ الَّتِي زَرَعُوهَا دَأَبًا سَبْعًا، وَتُضَاعَفُ الصَّدَقَةُ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِغَيْرِ حِسَابٍ سَبْعُونَ أَلْفًا.

فَلَارَيْبَ أَنَّ لِهَذَا الْعَدَدِ خَاصِّيَّةً لَيْسَتْ لِغَيْرِهِ، وَالسَّبْعَةُ جَمَعَتْ مَعَانِيَ الْعَدَدِ كُلِّهِ وَخَوَاصِّهُ، فَإِنَّ الْعَدَدَ شَفْعٌ وَوَتْرٌ. وَالشَّفْعُ: أَوَّلٌ وَثَانٍ. وَالْوَتْرُ: كَذَلِكَ، فَهَذِهِ أَرْبَعُ مَرَاتِبَ: شَفْعٌ أَوَّلٌ وَثَانٍ. وَوَتْرٌ أَوَّلٌ وَثَانٍ، وَلَا تَجْتَمِعُ هَذِهِ الْمَرَاتِبُ فِي أَقَلَّ مِنْ سَبْعَةٍ، وَهِيَ عَدَدٌ كَامِلٌ جَامِعٌ لِمَرَاتِبِ الْعَدَدِ الْأَرْبَعَةِ، أَعْنِي الشَّفْعَ وَالْوَتْرَ، وَالْأَوَائِلَ وَالثَّوَانِيَ، وَنَعْنِي بِالْوَتْرِ الْأَوَّلِ الثَّلَاثَةَ، وَبِالثَّانِي الْخَمْسَةَ، وَبِالشَّفْعِ الْأَوَّلِ الِاثْنَيْنِ، وَبِالثَّانِي الْأَرْبَعَةَ، وَلِلْأَطِبَّاءِ اعْتِنَاءٌ عَظِيمٌ بِالسَّبْعَةِ، وَلَاسِيَّمَا فِي الْبَحَّارِينَ.

وقد قال بقراط: كُلُّ شَيْءٍ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ، فَهُوَ مُقَدَّرٌ عَلَى سَبْعَةِ أَجْزَاءٍ، وَالنُّجُومُ سَبْعَةٌ، وَالْأَيَّامُ سَبْعَةٌ، وَأَسْنَانُ النَّاسِ سَبْعَةٌ، أَوَّلُهَا طِفْلٌ إِلَى سَبْعٍ، ثُمَّ صَبِيٌّ إِلَى أَرْبَعَ عَشْرَةَ، ثُمَّ مُرَاهِقٌ، ثُمَّ شَابٌّ، ثُمَّ كَهْلٌ، ثُمَّ شَيْخٌ، ثُمَّ هَرَمٌ إِلَى مُنْتَهَى الْعُمُرِ، وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِحِكْمَتِهِ وَشَرْعِهِ، وَقَدَرِهِ فِي تَخْصِيصِ هَذَا الْعَدَدِ، هَلْ هُوَ لِهَذَا الْمَعْنَى أَوْ لِغَيْرِهِ؟

وَيَجُوزُ نَفْعُ التَّمْرِ الْمَذْكُورِ فِي بَعْضِ السُّمُومِ، فَيَكُونُ الْحَدِيثُ مِنَ الْعَامِّ الْمَخْصُوصِ، وَيَجُوزُ نَفْعُهُ لِخَاصِّيَّةِ تِلْكَ الْبَلَدِ، وَتِلْكَ التُّرْبَةِ الْخَاصَّةِ مِنْ كُلِّ سَمٍّ، وَلَكِنْ هَا هُنَا أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْ بَيَانِهِ، وَهُوَ أَنَّ مِنْ شَرْطِ انْتِفَاعِ الْعَلِيلِ بِالدَّوَاءِ قَبُولَهُ، وَاعْتِقَادَ النَّفْعِ بِهِ، فَتَقْبَلُهُ الطَّبِيعَةُ، فَتَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى دَفْعِ الْعِلَّةِ، حَتَّى إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُعَالَجَاتِ يَنْفَعُ بِالِاعْتِقَادِ، وَحُسْنِ الْقَبُولِ، وَكَمَالِ التَّلَقِّي، وَقَدْ شَاهَدَ النَّاسُ مِنْ ذَلِكَ عَجَائِبَ؛ وَهَذَا لِأَنَّ الطَّبِيعَةَ يَشْتَدُّ قَبُولُهَا لَهُ، وَتَفْرَحُ النَّفْسُ بِهِ، فَتَنْتَعِشُ الْقُوَّةُ، وَيَقْوَى سُلْطَانُ الطَّبِيعَةِ، وَيَنْبَعِثُ الْحَارُّ الْغَرِيزِيُّ، فَيُسَاعِدُ عَلَى دَفْعِ الْمُؤْذِي، وَبِالْعَكْسِ يَكُونُ كَثِيرٌ مِنَ الْأَدْوِيَةِ نَافِعًا لِتِلْكَ الْعِلَّةِ، فَيَقْطَعُ عَمَلَهُ سُوءُ اعْتِقَادِ الْعَلِيلِ فِيهِ، وَعَدَمُ أَخْذِ الطَّبِيعَةِ لَهُ بِالْقَبُولِ، فَلَا يُجْدِي عَلَيْهَا شَيْئًا، واعتبر هذا بأعظم الأدوية والأسقية، وأنفعها للقلوب والأبدان، والمعاش والمعاد، والدنيا والآخرة، وهو القرآن الذي هو شفاء من كل داء، كيف لا ينفع القلوب التي لا تعتقد فيه الشفاء والنفع، بل لا يزيدها إلَّا مرضًا على مرضها، وليس لشفاء القلوب دواء

قط أنفع من القرآن؛ فإنه شفاؤها التام الكامل الذي لا يغادر فيها سقمًا إلا أبرأه، ويحفظ عليها صحتها المطلقة، ويحميها الحمية التامة من كل مؤذ ومضر، ومع هذا فإعراض أكثر القلوب عنه، وعدم اعتقادها الجازم الذي لا ريب فيه أنه كذلك، وعدم استعماله، والعدول عنه إلى الأدوية التي ركبها بنو جنسها حال بينها وبين الشفاء به، وغلبت العوائد، وَاشْتَدّ الْإِعْرَاضُ، وَتَمَكّنَتْ الْعِلَلُ وَالْأَدْوَاءُ الْمُزْمِنَةُ مِنْ الْقُلُوبِ، وَتَرَبّى الْمَرَضَى وَالْأَطِبّاءُ عَلَى عِلَاجِ بَنِي جِنْسِهِمْ وَمَا وَضَعَهُ لَهُمْ شُيُوخُهُمْ، وَمَنْ يُعَظّمُونَهُ وَيُحْسِنُونَ بِهِ ظُنُونَهُمْ، فَعَظُمَ الْمُصَابُ، وَاسْتَحْكَمَ الدّاءُ، وَتَرَكّبَتْ أَمْرَاضٌ وَعِلَلٌ أَعْيَا عَلَيْهِمْ عِلَاجُهَا، وَكُلّمَا عَالَجُوهَا بِتِلْكَ الْعِلَاجَاتِ الْحَادِثَةِ تَفَاقَمَ أَمْرُهَا، وَقَوِيَتْ، وَلِسَانُ الْحَالِ يُنَادِي عَلَيْهِمْ:

وَمِنْ الْعَجَائِبِ وَالْعَجَائِبُ جَمّةٌ ... قُرْبُ الشّفَاءِ وَمَا إلَيْهِ وُصُولُ

كَالْعِيسِ فِي الْبَيْدَاءِ يَقْتُلُهَا الظّمَأ ... وَالْمَاءُ فَوْقَ ظُهُورِهَا مَحْمُولُ

٥- التداوي باللبن:

اللبن فطرة، كما في حديث الإسراء: لما قُدِّم للنبي ﷺ ثلاثة من الآنية -ماء، ولبن، وخمر- فاختار النبي ﷺ اللبن، فقال له جبريل: «**اخترت الفطرة وستختار أمتك من بعدك الفطرة**»، وقُدم له هذه الثلاثة في السماء كما في حديث المعراج، وهما في (الصحيحين)، واختار النبي ﷺ اللبن، فقال له جبريل مثل مقالته السابقة.

والفطرة تُفسر بالدين أو السنة، وقيل غير ذلك، ورؤية اللبن في المنام فطرة أيضًا، كما في الحديث الذي أخرجه البزار عن أبي هريرة موقوفًا عليه أنه قال: «**اللبن في المنام فطرة**»[(١)].

وفي حديث أبي هريرة في (الصحيحين) لما رأى النبي ﷺ أنه يشرب لبنًا، ثم أعطى الإناء لأبي بكر، ثم أعطاه لعمر، فشرب ما بقي، فأولها ﷺ بالعلم أو بالدين.

(١) راجع: الصحيحة [٢٢٠٧]، صحيح الجامع [٥٤٨٨].

ولهذا كان النبي ﷺ يبدأ به عرسه في ليلة البناء، كما في حديث أسماء بنت يزيد عندما قينت عائشة رضي الله عنها -أي: زينت- وجيء بعس لبن فشرب وأعطاه عائشة فشربت... الحديث.

بالتجربة الطويلة في مداواة السحر باللبن مع العسل وجد أنه من أفضل ما تداوى به السحر، فلو أن المصاب بالسحر جاء بالعسل المخلوط بحبة البركة وزيت الزيتون وحلَّى به اللبن في كل صباح وشربه، لذهب سحره، والله أعلم.

٣٧- وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «عَلَيْكُمْ بِأَلْبَانِ الْبَقَرِ؛ فَإِنَّهَا دَوَاءٌ، وَأَسْمَانِهَا فَإِنَّهَا شِفَاءٌ»(١).

٦- قيام الليل يطرد الداء من الجسد

٣٨- عن سلمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِقِيامِ اللَّيْلِ؛ فَإِنَّهُ مِنْ دأْبِ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وإِنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ قُرْبَةٌ إِلى اللهِ، ومُكَفِّرةٌ للسَّيِّئَاتِ، ومَنْهَاةٌ عَنِ الإثمِ، وَمَطْرَدَةٌ للدَّاءِ مِنَ الجَسَدِ»(٢).

أقول: إن أفضل ما يُتداوى به من جميع الأمراض القلبية، والبدنية، والنفسية هو قيام الليل؛ حيث الخلوة بالله تعالى والسكون إليه، واللجوء إلى رب الأرباب، والساعات المستجاب فيها الدعوات، وحيث أبواب السماء المفتحة.

فلو أن المريض لجأ إلى الله تعالى ومرَّغ وجهه بين يديه، وسأله كشف الضر عنه، كما قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢]، وألحَّ على الله في السؤال بقلب حاضر؛ لاستُجيبت دعوته، وكُشف ضرهُ، كما دعاه

(١) صحيح: أخرجه أبو نعيم، وابن السني، والحاكم، وانظر: صحيح الجامع [٤٠٦]، والصحيحة [١٩٤٣].

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي [٣٥٤٩]، وابن عدي، وابن أبي الدنيا في التهجد، وابن خزيمة [١١٣٥]، والحاكم (١/ ٣٠٨)، والطبراني في الكبير [٧٤٦٦] وفي الأوسط، والبيهقي (٢/ ٥٠٢)، وابن نصر في قيام الليل [٤١]، وغيرهم، وصححه الألباني في صحيح الجامع [٤٠٧٩] والإرواء [٤٥٢].

(ذو النون) وهو في بطن الحوت فكشف الله عنه ضره، ودعاه أيوب وهو مبتلى، فكشف الله عنه ضرهُ، فإن المريض أحوج ما يكون إلى الله تعالى وهو مبتلى، وعندما يكون ساجدًا بين يديه في وقت غفلة العباد، وقت سهر العُبَّاد، تكون الإجابة أقرب والدعاء أرجى للإجابة، والله أعلم.

٧- علاج الحسد:

٣٩- عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «**العَيْن حقٌّ، ولو كان شيءٌ يَسبِق القَدَر، لَسَبَقَتْهُ العَيْن، فإذا استُغْسِلتم فاغسلوا**»(١).

٤٠- عَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ أن عَامِرَ بْن رَبِيعَةَ أخا بني عدي بن كعب رأى سَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ مع رسول الله ﷺ بالخرار يغتسل، فقال: والله! ما رأيت كاليوم ولا جلد مخبأة. قال: فلبط سهلٌ، فأتى النبي ﷺ فقيل: يا رسول الله، هل لك في سهل ابن حنيف لا يرفع رأسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هل تتهمون من أحدٍ؟**» قالوا: نعم، عامر ابن ربيعة، فقال رسول الله ﷺ: «**علام يقتل أحدكم أخاه؟ ألا بَرَّكت؟! إن العين حقٌّ، توضأ له**»، فتوضأ له عامر بن ربيعة، فراح سهل مع رسول الله ﷺ ليس به بأس(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ (٤/ ١٦٥-١٧٤): «فَأَبْطَلَتْ طَائِفَةٌ مِمَّنْ قَلَّ نَصِيبُهُمْ مِنَ السَّمْعِ وَالْعَقْلِ أَمْرَ الْعَيْنِ، وَقَالُوا: إِنَّمَا ذَلِكَ أَوْهَامٌ لَا حَقِيقَةَ لَهَا، وَهَؤُلَاءِ مِنْ أَجْهَلِ النَّاسِ بِالسَّمْعِ وَالْعَقْلِ، وَمِنْ أَغْلَظِهِمْ حِجَابًا، وَأَكْثَفِهِمْ طِبَاعًا، وَأَبْعَدِهِمْ مَعْرِفَةً عَنِ الْأَرْوَاحِ وَالنُّفُوسِ. وَصِفَاتِهَا وَأَفْعَالِهَا وَتَأْثِيرَاتِهَا، وَعُقَلَاءُ الْأُمَمِ عَلَى اخْتِلَافِ مِلَلِهِمْ وَنِحَلِهِمْ لَا تَدْفَعُ أَمْرَ الْعَيْنِ، وَلَا تُنْكِرُهُ، وَإِنْ اخْتَلَفُوا فِي سَبَبٍ وَجِهَةِ تَأْثِيرِ الْعَيْنِ».

---

(١) أخرجه مسلم [٢١٨٨]، والترمذي [٢٠٦٢]، وابن حبان [٦١٠٧]، والطحاوي مشكل (٤/ ٧٥)، والطبراني في الكبير [١٠٩٠٥]، وغيرُهم.

(٢) **صحيح**: أخرجه مالك (٢/ ٩٣٩)، وعبد الرزاق [١٩٧٦٦]، والنسائي في عمل اليوم [٢٠٨]، وابن ماجه [٣٥٠٩]، وابن حبان [٥٥٧٥، ٥٥٧٩]، والطحاوي مشكل (٤/ ٧٥-٧٧) وغيرُهم.

فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: إنّ الْعَائِنَ إِذَا تكَيّفَتْ نَفْسُهُ بِالْكَيْفِيّةِ الرّدِيئَةِ، انْبَعَثَ مِنْ عَيْنِهِ قُوّةٌ سُمّيّةٌ تَتّصِلُ بِالْمُعِينِ، فَيَتَضرّرُ. قَالُوا: وَلَا يُسْتَنْكَرُ هَذَا، كَمَا لَا يُسْتَنْكَرُ انْبِعَاثُ قُوّةٍ سُمّيّةٍ مِنْ الْأَفْعَى تَتّصِلُ بِالْإِنْسَانِ، فَيَهْلَكُ وَهَذَا أَمْرٌ قَدْ اُشْتُهِرَ عَنْ نَوْعٍ مِنْ الْأَفَاعِي أَنّهَا إذَا وَقَعَ بَصَرُهَا عَلَى الْإِنْسَانِ هَلَكَ، فَكَذَلِكَ الْعَائِنُ.

وَقَالَتْ فِرْقَةٌ أُخْرَى: لَا يُسْتَبْعَدُ أَنْ يَنْبَعِثَ مِنْ عَيْنِ بَعْضِ النّاسِ جَوَاهِرُ لَطِيفَةٌ غَيْرُ مَرْئِيّةٍ، فَتَتّصِلُ بِالْمُعِينِ، وَتَتَخَلّلُ مَسَامّ جِسْمِهِ، فَيَحْصُلُ لَهُ الضّرَرُ.

وَقَالَتْ فِرْقَةٌ أُخْرَى: قَدْ أَجْرَى اللهُ الْعَادَةَ بِخَلْقِ مَا يَشَاءُ مِنْ الضّرَرِ عِنْدَ مُقَابَلَةِ عَيْنِ الْعَائِنِ لِمَنْ يَعِينُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ قُوّةٌ وَلَا سَبَبٌ وَلَا تَأْثِيرٌ أَصْلًا، وَهَذَا مَذْهَبُ مُنْكِرِي الْأَسْبَابِ وَالْقُوَى وَالتّأْثِيرَاتِ فِي الْعَالَمِ، وَهَؤُلَاءِ قَدْ سَدّوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بَابَ الْعِلَلِ وَالتّأْثِيرَاتِ وَالْأَسْبَابِ، وَخَالَفُوا الْعُقَلَاءَ أَجْمَعِينَ.

وَلَارَيْبَ أَنّ اللهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ فِي الْأَجْسَامِ وَالْأَرْوَاحِ قُوًى وَطَبَائِعَ مُخْتَلِفَةً، وَجَعَلَ فِي كَثِيرٍ مِنْهَا خَوَاصّ وَكَيْفِيّاتٍ مُؤَثّرَةً، وَلَا يُمْكِنُ لِعَاقِلٍ إنْكَارُ تَأْثِيرِ الْأَرْوَاحِ فِي الْأَجْسَامِ، فَإِنّهُ أَمْرٌ مُشَاهَدٌ مَحْسُوسٌ، وَأَنْتَ تَرَى الْوَجْهَ كَيْفَ يَحْمَرّ حُمْرَةً شَدِيدَةً إذَا نَظَرَ إلَيْهِ مِنْ يَحْتَشِمُهُ وَيَسْتَحِي مِنْهُ، وَيَصْفَرّ صُفْرَةً شَدِيدَةً عِنْدَ نَظَرِ مَنْ يَخَافُهُ إلَيْهِ، وَقَدْ شَاهَدَ النّاسُ مَنْ يَسْقَمُ مِنْ النّظَرِ وَتَضْعُفُ قُوَاهُ، وَهَذَا كُلّهُ بِوَاسِطَةِ تَأْثِيرِ الْأَرْوَاحِ، وَلِشِدّةِ ارْتِبَاطِهَا بِالْعَيْنِ يُنْسَبُ الْفِعْلُ إلَيْهَا، وَلَيْسَتْ هِيَ الْفَاعِلَةَ، وَإِنّمَا التّأْثِيرُ لِلرّوحِ، وَالْأَرْوَاحُ مُخْتَلِفَةٌ فِي طَبَائِعِهَا وَقُوَاهَا وَكَيْفِيّاتِهَا وَخَوَاصّهَا، فَرُوحُ الْحَاسِدِ مُؤْذِيَةٌ لِلْمَحْسُودِ أَذًى بَيّنًا، وَلِهَذَا أَمَرَ اللهُ – سُبْحَانَهُ – رَسُولَهُ أَنْ يَسْتَعِيذَ بِهِ مِنْ شَرّهِ، وَتَأْثِيرُ الْحَاسِدِ فِي أَذَى الْمَحْسُودِ أَمْرٌ لَا يُنْكِرُهُ إلّا مَنْ هُوَ خَارِجٌ عَنْ حَقِيقَةِ الْإِنْسَانِيّةِ، وَهُوَ أَصْلُ الْإِصَابَةِ بِالْعَيْنِ،؛ فَإِنّ النّفْسَ الْخَبِيثَةَ الْحَاسِدَةَ تَتَكَيّفُ بِكَيْفِيّةٍ خَبِيثَةٍ، وَتُقَابِلُ الْمَحْسُودَ، فَتُؤَثّرُ فِيهِ بِتِلْكَ الْخَاصّيّةِ، وَأَشْبَهُ

الْأَشْيَاءِ بِهَذَا الْأَفْعَى، فَإِنَّ السَّمَّ كَامِنٌ فِيهَا بِالْقُوَّةِ، فَإِذَا قَابَلَتْ عَدُوَّهَا انْبَعَثَتْ مِنْهَا قُوَّةٌ غَضَبِيَّةٌ، وَتَكَيَّفَتْ بِكَيْفِيَّةٍ خَبِيثَةٍ مُؤْذِيَةٍ، فَمِنْهَا مَا تَشْتَدُّ كَيْفِيَّتُهَا وَتَقْوَى حَتَّى تُؤَثِّرَ فِي إِسْقَاطِ الْجَنِينِ، وَمِنْهَا مَا تُؤَثِّرُ فِي طَمْسِ الْبَصَرِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْأَبْتَرِ، وَذِي الطُّفْيَتَيْنِ مِنَ الْحَيَّاتِ: «إِنَّهُمَا يَلْتَمِسَانِ الْبَصَرَ وَيُسْقِطَانِ الْحَبَلَ».

وَمِنْهَا مَا تُؤَثِّرُ فِي الْإِنْسَانِ كَيْفِيَّتُهَا بِمُجَرَّدِ الرُّؤْيَةِ مِنْ غَيْرِ اتِّصَالٍ بِهِ؛ لِشِدَّةِ خُبْثِ تِلْكَ النَّفْسِ، وَكَيْفِيَّتِهَا الْخَبِيثَةِ الْمُؤَثِّرَةِ، وَالتَّأْثِيرُ غَيْرُ مَوْقُوفٍ عَلَى الِاتِّصَالَاتِ الْجِسْمِيَّةِ، كَمَا يَظُنُّهُ مَنْ قَلَّ عِلْمُهُ وَمَعْرِفَتُهُ بِالطَّبِيعَةِ وَالشَّرِيعَةِ، بَلِ التَّأْثِيرُ يَكُونُ تَارَةً بِالِاتِّصَالِ، وَتَارَةً بِالْمُقَابَلَةِ، وَتَارَةً بِالرُّؤْيَةِ، وَتَارَةً بِتَوَجُّهِ الرُّوحِ نَحْوَ مَنْ يُؤَثِّرُ فِيهِ، وَتَارَةً بِالْأَدْعِيَةِ وَالرُّقَى وَالتَّعَوُّذَاتِ، وَتَارَةً بِالْوَهْمِ وَالتَّخَيُّلِ، وَنَفْسُ الْعَائِنِ لَا يَتَوَقَّفُ تأثيرها على الرؤية، بل قد يكون أَعْمَى، فَيُوصَفُ لَهُ الشَّيْءُ، فَتُؤَثِّرُ نَفْسُهُ فِيهِ، وَإِنْ لَمْ يَرَهُ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْعَائِنِينَ يُؤَثِّرُ فِي الْمَعِينِ بِالْوَصْفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ [القلم: ٥١]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق]، فَكُلُّ عَائِنٍ حَاسِدٌ، وَلَيْسَ كُلُّ حَاسِدٍ عَائِنًا، فَلَمَّا كَانَ الْحَاسِدُ أَعَمَّ مِنَ الْعَائِنِ، كَانَتِ الِاسْتِعَاذَةُ مِنْهُ اسْتِعَاذَةً مِنَ الْعَائِنِ، وَهِيَ سِهَامٌ تَخْرُجُ مِنْ نَفْسِ الْحَاسِدِ وَالْعَائِنِ نَحْوَ الْمَحْسُودِ وَالْمَعِينِ تُصِيبُهُ تَارَةً وَتُخْطِئُهُ تَارَةً فَإِنْ صَادَفَتْهُ مَكْشُوفًا لَا وِقَايَةَ عَلَيْهِ، أَثَّرَتْ فِيهِ، وَلَا بُدَّ، وَإِنْ صَادَفَتْهُ حَذِرًا شَاكِيَ السِّلَاحِ لَا مَنْفَذَ فِيهِ لِلسِّهَامِ، لَمْ تُؤَثِّرْ فِيهِ، وَرُبَّمَا رُدَّتِ السِّهَامُ عَلَى صَاحِبِهَا، وَهَذَا بِمَثَابَةِ الرَّمْيِ الْحِسِّيِّ سَوَاءً، فَهَذَا مِنَ النُّفُوسِ وَالْأَرْوَاحِ، وَذَاكَ مِنَ الْأَجْسَامِ وَالْأَشْبَاحِ. وَأَصْلُهُ مِنْ إِعْجَابِ الْعَائِنِ بِالشَّيْءِ، ثُمَّ تَتْبَعُهُ كَيْفِيَّةُ نَفْسِهِ الْخَبِيثَةِ، ثُمَّ تَسْتَعِينُ عَلَى تَنْفِيذِ سُمِّهَا بِنَظْرَةٍ إِلَى الْمَعِينِ، وَقَدْ يَعِينُ الرَّجُلُ

نَفْسَهُ، وَقَدْ يَعِينُ بِغَيْرِ إِرَادَتِهِ، بَلْ بِطَبْعِهِ، وَهَذَا أَرْدَأُ مَا يَكُونُ مِنَ النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ، وَقَدْ قَالَ أَصْحَابُنَا وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْفُقَهَاءِ: إِنَّ مَنْ عُرِفَ بِذَلِكَ، حَبَسَهُ الْإِمَامُ، وَأَجْرَى لَهُ مَا يُنْفِقُ عَلَيْهِ إِلَى الْمَوْتِ، وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ قَطْعًا.

وَالْمَقْصُودُ: الْعِلَاجُ النَّبَوِيّ لِهَذِهِ الْعِلَّةِ، وَهُوَ أَنْوَاعٌ، وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنِهِ» عَنْ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ، قَالَ: مَرَرْنَا بِسَيْلٍ، فَدَخَلْت، فَاغْتَسَلْت فِيهِ، فَخَرَجْتُ مَحْمُومًا، فَنُمِيَ ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**مُرُوا أَبَا ثَابِتٍ يَتَعَوَّذُ**»، قَالَ: فَقُلْت: يَاسَيِّدِي! وَالرُّقَى صَالِحَةٌ؟ فَقَالَ: «**لَا رُقْيَةَ إِلَّا فِي نَفْسٍ أَوْ حُمَةٍ أَوْ لَدْغَةٍ**».

وَالنَّفْسُ: الْعَيْنُ، يُقَالُ: أَصَابَتْ فُلَانًا نَفْسٌ، أَيْ: عَيْنٌ. وَالنَّافِسُ: الْعَائِنُ. وَاللَّدْغَةُ -بِدَالٍ مُهْمَلَةٍ وَغَيْنٍ مُعْجَمَةٍ- وَهِيَ ضَرْبَةُ الْعَقْرَبِ وَنَحْوِهَا.

فَمِنْ التَّعَوُّذَاتِ وَالرُّقَى الْإِكْثَارُ مِنْ قِرَاءَةِ الْمُعَوِّذَتَيْنِ، وَفَاتِحَةِ الْكِتَابِ، وَآيَةِ الْكُرْسِيِّ، وَمِنْهَا التَّعَوُّذَاتُ النَّبَوِيَّةُ؛ نحو:

- «**أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق**».
- ونحو: «**أعوذ بكلمات الله التامّة، من كل شيطان وهامّة، ومن كل عين لامّة**».
- وَنَحْوُ: «**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَذَرَأَ وَبَرَأَ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَمِنْ شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمِنْ شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ، وَالنَّهَارِ، وَمِنْ شَرِّ طَوَارِقِ اللَّيْلِ إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَن**».
- وَمِنْهَا: «**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ، وَمِنْ شَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ**».
- وَمِنْهَا: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِوَجْهِكَ الْكَرِيمِ، وَكَلِمَاتِك التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ،**

اللَّهُمَّ أَنْتَ تَكْشِفُ الْمَأْثَمَ وَالْمَغْرَمَ، اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا يُهْزَمُ جُنْدُك، وَلَا يُخْلَفُ وَعْدُك، سُبْحَانَك وَبِحَمْدِك».

- وَمِنْهَا: «أَعُوذُ بِوَجْهِ اللهِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا شَيْءَ أَعْظَمُ مِنْهُ، وَبِكَلِمَاتِهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ، وَأَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَى، مَا عَلِمْتُ مِنْهَا وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَذَرَأَ وَبَرَأَ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ لَا أُطِيقُ شَرَّهُ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

- ومنها: «اللَّهُمَّ أنت ربِّي لا إله إلا أنتَ، عليك توكلتُ، وأنتَ ربُّ العرش العظيم، ما شاء الله كان، وما لم يشأْ لم يكن، لا حَوْلَ ولا قُوَّة إلا بالله، أعلم أنَّ الله على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، وأنَّ الله قد أحاط بكل شيءٍ علمًا، وأحصَى كُلَّ شيءٍ عددًا، اللَّهُمَّ إني أعوذُ بِكَ مِن شَرِّ نفسي، وشَرِّ الشيطانِ وشركه، ومِن شَرِّ كُلِّ دابةٍ أنتَ آخذٌ بناصيتها، إنَّ ربِّي على صِراطٍ مستقيم».

وإن شاء قال: «تحصَّنتُ بالله الَّذي لا إله إلا هُوَ، إلهي وإله كُلِّ شيء، واعتصمتُ بربي وربِّ كُلِّ شيء، وتوكلتُ على الحيِّ الذي لا يموتُ، واستَدْفَعتُ الشرَّ بلا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله، حسبيَ اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ، حسبيَ الربُّ مِن العباد، حسبيَ الخَالِقُ من المخلوق، حسبيَ الرازقُ مِنَ المرزوق، حسبيَ الذي هو حسبي، حسبيَ الذي بيده ملكوتُ كُلِّ شيء وهو يُجيرُ ولا يُجَارُ عليه، حسبيَ الله وكَفَى، سَمِعَ الله لمَنْ دعا، ليس وراء الله مرمَى، حسبيَ الله لا إله إلا هُوَ، عليه توكلتُ، وهُوَ ربُّ العرش العظيم».

ومن جرّب هذه الدعوات والعُوَذ، عرف مقدار منفعتها، وشدة الحاجة إليها، وهي تمنع وصول أثر العائن، وتدفعه بعد وصوله بحسب قوة إيمان قائلها، وقوة نفسه، واستعداده، وقوة توكله وثبات قلبه؛ فإنها سلاح، والسلاح بضاربه.

فصل

وَإِذَا كَانَ الْعَائِنُ يَخْشَى ضَرَرَ عَيْنِهِ وَإِصَابَتَهَا لِلْمَعِينِ، فَلْيَدْفَعْ شَرَّهَا بِقَوْلِهِ: اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ النَّبِي ﷺ لِعَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ لما عَانَ سَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ: «**أَلَا بَرَّكْت؟!**» أَيْ: قُلْتَ: اللَّهمّ بَارِكْ عَلَيْهِ، وَمِمّا يُدْفَعُ بِهِ إِصَابَةُ الْعَيْنِ قَوْلُ: مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوّةَ إِلّا بِالله.

رَوَى هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ، أَنّهُ كَانَ إِذَا رَأَى شَيْئًا يُعْجِبُهُ، أَوْ دَخَلَ حَائِطًا مِنْ حِيطَانِهِ، قَالَ: مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوّةَ إِلّا بِالله.

وَمِنْهَا رُقْيَةُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السّلَامُ لِلنبي ﷺ التِي رَوَاهَا مُسْلِمٌ فِي (صَحِيحِهِ): «**بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيك، مِنْ كُلّ شَيْءٍ يُؤْذِيك، مِنْ شَرّ كُلّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ اللهُ يَشْفِيك، بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ**».

وَرَأَى جَمَاعَةٌ مِنْ السّلَفِ أَنْ تُكْتَبَ لَهُ الْآيَاتُ مِنْ الْقُرْآنِ، ثُمّ يَشْرَبهَا. قَالَ مُجَاهِدٌ: لَا بَأْسَ أَنْ يَكْتُبَ الْقُرْآنَ، وَيَغْسِلَهُ، وَيَسْقِيَهُ المَرِيضَ، وَمِثْلُهُ عَنْ أَبِي قِلَابَة. وَيُذْكَرُ عَنْ ابْنِ عَبّاسٍ: أَنّهُ أَمَرَ أَنْ يُكْتَبَ لِامْرَأَةٍ تَعسّر عَلَيْهَا وِلَادُها أَثَرٌ مِنْ الْقُرْآنِ، ثُمّ يُغْسَلُ وَتُسْقَى. وَقَالَ أَيّوبُ: رَأَيْتُ أَبَا قِلَابَةَ كَتَبَ كِتَابًا مِنْ الْقُرْآنِ، ثُمّ غَسَلَهُ بِمَاءٍ، وَسَقَاهُ رَجُلا كَانَ بِهِ وَجَعٌ.

وَمِنْهَا أَنْ يُؤْمَرَ الْعَائِنُ بِغَسْلِ مَغَابِنِهِ وَأَطْرَافِهِ وَدَاخِلَةِ إِزَارِهِ، وَفِيهِ قَوْلَانِ: **أَحَدُهُمَا** - أَنّهُ فَرْجُهُ، **وَالثّانِي** - أَنّهُ طَرَفُ إِزَارِهِ الدّاخِلِ الّذِي يَلِي جَسَدَهُ مِنْ الجَانِبِ الْأَيْمَنِ، ثُمّ يُصَبّ عَلَى رَأْسِ المَعِينِ مِنْ خَلْفِهِ بَغْتَةً، وَهَذَا مِمّا لَا يَنَالُهُ عِلَاجُ الْأَطِبّاءِ، وَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ مَنْ أَنْكَرَهُ، أَوْ سَخِرَ مِنْهُ، أَوْ شَكّ فِيهِ، أَوْ فَعَلَهُ مُجَرّبًا لَا يَعْتَقِدُ أَنّ ذَلِكَ يَنْفَعُهُ.

وَإِذَا كَانَ فِي الطَّبِيعَةِ خَوَاصّ لَا تَعْرِفُ الْأَطِبَّاءُ عِلَلَهَا أَلْبَتَّةَ، بَلْ هِيَ عِنْدَهُمْ خَارِجَةٌ عَنْ قِيَاسِ الطَّبِيعَةِ تَفْعَلُ بِالْخَاصّيّةِ، فَمَا الَّذِي يُنْكِرُهُ زَنَادِقَتُهُمْ وَجَهَلَتُهُمْ مِنَ الْخَوَاصّ الشَّرْعِيّةِ، هَذَا مَعَ أَنّ فِي الْمُعَالَجَةِ بِهَذَا الِاسْتِغْسَالِ مَا تَشْهَدُ لَهُ الْعُقُولُ الصّحِيحَةُ وَتُقِرّ لِمُنَاسَبَتِهِ، فَاعْلَمْ أَنّ تِرْيَاقَ سُمّ الْحَيّةِ فِي لَحْمِهَا، وَأَنّ عِلَاجَ تَأْثِيرِ النّفْسِ الْغَضَبِيّةِ فِي تَسْكِينِ غَضَبِهَا، وَإِطْفَاءِ نَارِهِ بِوَضْعِ يَدِكَ عَلَيْهِ، وَالْمَسْحِ عَلَيْهِ، وَتَسْكِينِ غَضَبِهِ، وَذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ رَجُلٍ مَعَهُ شُعْلَةٌ مِنْ نَارٍ، وَقَدْ أَرَادَ أَنْ يَقْذِفَكَ بِهَا، فَصَبَبْتَ عَلَيْهَا الْمَاءَ، وَهِيَ فِي يَدِهِ حَتّى طُفِئَتْ، وَلِذَلِكَ أُمِرَ الْعَائِنُ أَنْ يَقُولَ: «اللّهُمّ بَارِكْ عَلَيْهِ» لِيَدْفَعَ تِلْكَ الْكَيْفِيّةَ الْخَبِيثَةَ بِالدّعَاءِ الّذِي هُوَ إِحْسَانٌ إِلَى الْمُعِينِ؛ فَإِنّ دَوَاءَ الشّيْءِ بِضِدّهِ. وَلَمّا كَانَتْ هَذِهِ الْكَيْفِيّةُ الْخَبِيثَةُ تَظْهَرُ فِي الْمَوَاضِعِ الرّقِيقَةِ مِنَ الْجَسَدِ؛ لِأَنّهَا تَطْلُبُ النّفُوذَ، فَلَا تَجِدُ أَرَقّ مِنَ الْمَغَابِنِ، وَدَاخِلَةِ الْإِزَارِ، وَلَا سِيّمَا إِنْ كَانَ كِنَايَةً عَنِ الْفَرْجِ، فَإِذَا غُسِلَتْ بِالْمَاءِ، بَطَلَ تَأْثِيرُهَا وَعَمَلُهَا، وَأَيْضًا فَهَذِهِ الْمَوَاضِعُ لِلْأَرْوَاحِ الشّيْطَانِيّةِ بِهَا اخْتِصَاصٌ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنّ غَسْلَهَا بِالْمَاءِ يُطْفِئُ تِلْكَ النّارِيّةَ، وَيَذْهَبُ بِتِلْكَ السّمّيّةِ.

وَفِيهِ أَمْرٌ آخَرُ، وَهُوَ وُصُولُ أَثَرِ الْغَسْلِ إِلَى الْقَلْبِ مِنْ أَرَقّ الْمَوَاضِعِ وَأَسْرَعِهَا تَنْفِيذًا، فَيُطْفِئُ تِلْكَ النّارِيّةَ وَالسّمّيّةَ بِالْمَاءِ.

فَيُشْفَى الْمُعِينُ، وَهَذَا كَمَا أَنّ ذَوَاتِ السّمُومِ إِذَا قُتِلَتْ بَعْدَ لَسْعِهَا، خَفّ أَثَرُ اللّسْعَةِ عَنِ الْمَلْسُوعِ، وَوَجَدَ رَاحَةً، فَإِنّ أَنْفُسَهَا تَمُدّ أَذَاهَا بَعْدَ لَسْعِهَا، وَتُوَصّلُهُ إِلَى الْمَلْسُوعِ.

فَإِذَا قُتِلَتْ، خَفّ الْأَلَمُ، وَهَذَا مُشَاهَدٌ. وَإِنْ كَانَ مِنْ أَسْبَابِهِ فَرَحُ الْمَلْسُوعِ، وَاسْتِشْفَاءُ نَفْسِهِ بِقَتْلِ عَدُوّهِ، فَتَقْوَى الطّبِيعَةُ عَلَى الْأَلَمِ، فَتَدْفَعُهُ.

وَبِالْجُمْلَةِ: غَسْلُ الْعَائِنِ يُذْهِبُ تِلْكَ الْكَيْفِيّةَ الّتِي ظَهَرَتْ مِنْهُ، وَإِنّمَا يَنْفَعُ غَسْلُهُ عِنْدَ تَكَيّفِ نَفْسِهِ بِتِلْكَ الْكَيْفِيّةِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ ظَهَرَتْ مُنَاسَبَةُ الْغَسْلِ، فَمَا مُنَاسَبَةُ صَبِّ ذَلِكَ الْمَاءِ عَلَى الْمَعِينِ؟ قِيلَ: هُوَ فِي غَايَةِ الْمُنَاسَبَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ الْمَاءَ مَاءٌ طُفِئَ بِهِ تِلْكَ النَّارِيَّةُ، وَأُبْطِلَ تِلْكَ الْكَيْفِيَّةُ الرَّدِيئَةُ مِنْ الْفَاعِلِ، فَكَمَا طُفِئَت بِهِ النَّارِيَّةُ الْقَائِمَةُ بِالْفَاعِلِ طُفِئَت بِهِ، وَأُبْطِلَتْ عَنْ الْمَحَلِّ الْمُتَأَثِّرِ بَعْدَ مُلَابَسَتِهِ لِلْمُؤَثِّرِ الْعَائِنِ، وَالْمَاءُ الَّذِي يُطْفَأُ بِهِ الْحَدِيدُ يَدْخُلُ فِي أَدْوِيَةٍ عِدَّةٍ طَبِيعِيَّةٍ ذَكَرَهَا الْأَطِبَّاءُ، فَهَذَا الَّذِي طُفِئَ بِهِ نَارِيَّةُ الْعَائِنِ، لَا يُسْتَنْكَرُ أَنْ يَدْخُلَ فِي دَوَاءٍ يُنَاسِبُ هَذَا الدَّاءَ، وَبِالْجُمْلَةِ: فَطِبُّ الطَّبَائِعِيَّةِ وَعِلَاجُهُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْعِلَاجِ النَّبَوِيِّ، كَطِبِّ الطُّرُقِيَّةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى طِبِّهِمْ، بَلْ أَقَلَّ، فَإِنَّ التَّفَاوُتَ الَّذِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ أَعْظَمُ، وَأَعْظَمُ مِنْ التَّفَاوُتِ الَّذِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الطُّرُقِيَّةِ بِمَا لَا يُدْرِكُ الْإِنْسَانُ مِقْدَارَهُ، فَقَدْ ظَهَرَ لَك عَقْدُ الْإِخَاءِ الَّذِي بين الحكمة، والشرع، وعدم مُنَاقَضَةِ أَحَدِهِمَا لِلْآخَرِ، وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى الصَّوَابِ، وَيَفْتَحُ لِمَنْ أَدَامَ قَرْعَ بَاب التَّوْفِيقِ مِنْهُ كُلَّ بَابٍ، وَلَهُ النِّعْمَةُ السَّابِغَةُ، وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ.

فصل

وَمِنْ عِلَاجِ ذَلِكَ أَيْضًا وَالِاحْتِرَازِ مِنْهُ سَتْرُ مَحَاسِنِ مَنْ يُخَافُ عَلَيْهِ الْعَيْنُ بِمَا يَرُدُّهَا عَنْهُ، كَمَا ذَكَرَ الْبَغَوِيّ فِي كِتَابِ (شَرْحِ السُّنَّةِ): أَنَّ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَأَى صَبِيًّا مَلِيحًا، فَقَالَ: دَسِّمُوا نُونَتَهُ؛ لِئَلَّا تُصِيبَهُ الْعَيْنُ، ثُمَّ قَالَ فِي تَفْسِيرِهِ: وَمَعْنَى: دَسِّمُوا نُونَتَهُ: أَيْ: سَوِّدُوا نُونَتَهُ، وَالنُّونَةُ: النُّقْرَةُ الَّتِي تَكُونُ فِي ذَقَنِ الصَّبِيِّ الصَّغِيرِ.

قال الخطابي في (غريب الحديث) له عن عثمان: إِنَّهُ رَأَى صَبِيًّا تَأْخُذُهُ الْعَيْنُ، فَقَالَ: دَسِّمُوا نُونَتَهُ. فَقَالَ أَبُو عَمْرٍو: سَأَلْت أَحْمَدَ بْنَ يَحْيَى عَنْهُ، فَقَالَ: أَرَادَ بِالنُّونَةِ: النُّقْرَةَ الَّتِي فِي ذَقَنِهِ. وَالتَّدْسِيمُ: التَّسْوِيدُ. أَرَادَ: سَوِّدُوا ذَلِكَ الْمَوْضِعَ مِنْ ذَقَنِهِ؛ لِيَرُدَّ الْعَيْنَ. قَالَ: وَمِنْ هَذَا حَدِيثُ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَطَبَ ذَاتَ يَوْمٍ، وَعَلَى رَأْسِهِ عِمَامَةٌ دَسْمَاءُ، أَيْ: سَوْدَاءُ. أَرَادَ الِاسْتِشْهَادَ عَلَى اللَّفْظَةِ، وَمِنْ هَذَا أَخَذَ الشَّاعِرُ قَوْلَهُ:

مَا كَانَ أَحْوَجَ ذَا الْكَمَالِ إِلَى ... عَيْبٍ يُوَقِّيهِ مِنَ الْعَيْنِ

فصل

وَمِنْ الرّقى الّتِي تَرُدّ الْعَيْنَ مَا ذُكِرَ عَنْ أَبِي عَبْدِ الله السّاجِيّ، أَنّهُ كَانَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ لِلْحَجّ أَوْ الْغَزْوِ عَلَى نَاقَةٍ فَارِهَةٍ، وَكَانَ فِي الرّفْقَةِ رَجُلٌ عَائِنٌ، قَلّمَا نَظَرَ إلَى شَيْءٍ إلّا أَتْلَفَهُ، فَقِيلَ لِأَبِي عَبْدِ الله: احْفَظْ نَاقَتَك مِنْ الْعَائِنِ، فَقَالَ: لَيْسَ لَهُ إلَى نَاقَتِي سَبِيلٌ، فَأُخْبِرَ الْعَائِنُ بِقَوْلِهِ، فَتَحَيّنَ غَيْبَةَ أَبِي عَبْدِ الله، فَجَاءَ إلَى رَحْلِهِ، فَنَظَرَ إلَى النّاقَةِ، فَاضْطَرَبَتْ وَسَقَطَتْ، فَجَاءَ أَبُو عَبْدِ الله، فَأُخْبِرَ أَنّ الْعَائِنَ قَدْ عَانَهَا، وَهِيَ كَمَا تَرَى، فَقَالَ: دِلّونِي عَلَيْهِ، فَدُلّ، فَوَقَفَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: بِسْمِ الله، حَبْسٌ حَابِسٌ، وَحَجَرٌ يَابِسٌ، وَشِهَابٌ قَابِسٌ، رَدَدْتُ عَيْنَ الْعَائِنِ عَلَيْهِ، وَعَلَى أَحَبّ النّاسِ إلَيْهِ، ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣-٤]، فَخَرَجَتْ حَدَقَتَا الْعَائِنِ، وَقَامَتْ النّاقَةُ لَا بَأْسَ بِهَا» انتهى.

٨- من تطبب ولم يعرف عنه طب:

٤١- عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ تَطَبَّبَ وَلَمْ يَكُنْ بِالطِّبِ مَعْرُوفًا، فَأَصَابَ نَفْسًا فَمَا دُونَهَا فَهُوَ ضَامِنٌ»(١).

وفي بعض الروايات: «مَنْ تَطَبَّبَ وَلَمْ يُعْلَمْ مِنْهُ الطِّبّ فَهُوَ ضَامِنٌ»(٢).

هذا العنوان معقود بسبب أن هذا الباب دخله من لا يحسنه فأساء جدًّا، وجُلّ المعالجين يحتاجون إلى العلاج، غير أنهم جهلة به.

ومنذ شهور جاءني والد فتاة في العشرين من عمرها أصابها مَسٌّ فذهب بها إلى

---

(١) حسن: أخرجه أبو داود [٤٥٨٦]، والنسائي (٨/ ٥٢-٥٣)، وابن ماجه [٣٤٦٦]، والدارقطني (٣/ ١٩٥-١٩٦)، (٤/ ٢١٥-٢١٦)، والحاكم (٤/ ٢١٢)، وابن عدي (٥/ ١١٥)، والبيهقي (٨/ ١٤١).

(٢) انظر: (الصحيحة) [٦٣٥]، وصحيح الجامع [٦١٥٣].

بعض هؤلاء ممن أشرنا إليهم، فما كان منه إلاّ أنه صعقها بالكهرباء فماتت وهي عروس قد قرب زفافها!! ويريد والدها عمل بلاغ في النيابة بسبب قتله لابنته.

وبعدما هدأت من روعه، أشرت عليه بأن هذا المعالج ضامن كما أخبر بذلك النبي ﷺ، وانصرف الرجل مشكورًا راضيًا بالحكم، وأقول: ماذا لو لم يرضَ بالحكم وأصرَّ على عمل بلاغ، وأصبحت فضيحة.

وغير ما ذكرت كثير ممن وقعوا في هذا الأمر بسبب عدم إحسانهم لأمر العلاج والتداوي؛ لأجل هذا وغيره ألحقت بالتداوي هذا العنوان من باب التذكير والنصح، والله من وراء القصد.

وإليك بعض ما ذكره العلامة ابن القيم في (الزاد) (٤/١٣٥-١٤٦): «هَذَا الْحَدِيثُ يَتَعَلَّقُ بِهِ ثَلَاثَةُ أُمُورٍ: أَمْرٌ لُغَوِيّ، وَأَمْرٌ فِقْهِيّ، وَأَمْرٌ طِبِّيّ.

فَأَمَّا اللُّغَوِيّ: فَالطِّبّ بِكَسْرِ الطَّاءِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ، يُقَالُ عَلَى مَعَانٍ؛ مِنْهَا الْإِصْلَاحُ، يُقَالُ: طَبَبْتُهُ إِذَا أَصْلَحْته، وَيُقَالُ: لَهُ طِبّ بِالْأُمُورِ، أَيْ: لُطْفٌ وَسِيَاسَةٌ.. قَالَ الشَّاعِرُ:

وَإِذَا تَغَيَّرَ مِنْ تَمِيمٍ أَمْرُهَا ... كُنْت الطَّبِيبَ لَهَا بِرَأْيٍ ثَاقِبِ

وَمِنْهَا الْحِذْقُ، قَالَ الْجَوْهَرِيّ: «كُلّ حَاذِقٍ طَبِيبٌ عِنْدَ الْعَرَبِ»، قَالَ أَبُو عَبِيدٍ: «أَصْلُ الطِّبّ: الْحِذْقُ بِالْأَشْيَاءِ وَالْمَهَارَةُ بِهَا، يُقَالُ لِلرَّجُلِ: طِبّ وَطَبِيبٌ: إِذَا كَانَ كَذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ فِي غَيْرِ عِلَاجِ الْمَرِيضِ»، وَقَالَ غَيْرُهُ: «رَجُلٌ طَبِيبٌ: أَيْ حَاذِقٌ، سُمِّيَ طَبِيبًا لِحِذْقِهِ وَفِطْنَتِهِ»، «قَالَ عَلْقَمَةُ:

فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنَّنِي ... خَبِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبُ

إِذَا شَابَ رَأْسُ الْمَرْءِ أَوْ قَلّ مَالُهُ ... فَلَيْسَ لَهُ مِنْ وُدِّهِنّ نَصِيبُ»

وَقَالَ عَنْتَرَةُ:

«إِنْ تُغْدِ فِي دُونِي الْقِنَاعَ فَإِنَّنِي طِبٌّ بِأَخْذِ الْفَارِسِ الْمُسْتَلْئِمِ

أَيْ: إِنْ تُرْخِي عَنِّي قِنَاعَك وَتَسْتُرِي وَجْهَك رَغْبَةً عَنِّي؛ فَإِنِّي خَبِيرٌ حَاذِقٌ بِأَخْذِ الْفَارِسِ الَّذِي قَدْ لَبِسَ لَأْمَةَ حَرْبِهِ».

وَمِنْهَا الْعَادَةُ، يُقَالُ: لَيْسَ ذَاكَ بِطِبِّي، أَيْ: عَادَتِي».

قَالَ فَرْوَةُ بْنُ مُسَيْكٍ:

فَمَا إِنْ طِبُّنَا جُبْنٌ وَلَكِنْ مَنَايَانَا وَدَوْلَةُ آخَرِينَا

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ الْحُسَيْنِ الْمُتَنَبِّي:

وَمَا الَّتِيهُ طِبِّي فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّنِي بَغِيضٌ إِلَيَّ الْجَاهِلُ الْمُتَعَاقِلُ

وَمِنْهَا السِّحْرُ؛ يُقَالُ: رَجُلٌ مَطْبُوبٌ، أَيْ: مَسْحُورٌ، وَفِي (الصَّحِيحِ) فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لما سَحَرَتْ يَهُودُ رَسُولَ الله ﷺ، وَجَلَسَ الْمَلَكَانِ عِنْدَ رَأْسِهِ وَعِنْدَ رِجْلَيْهِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: مَا بَالُ الرَّجُلِ؟ قَالَ الْآخَرُ: مَطْبُوبٌ. قَالَ: مَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: فُلَانٌ الْيَهُودِيّ.

قَالَ أَبُو عَبِيدٍ: إِنَّمَا قَالُوا لِلْمَسْحُورِ: مَطْبُوبٌ؛ لأَنَّهُمْ كَنَّوْا بِالطِّبِّ عَنِ السِّحْرِ، كَمَا كَنَّوْا عَنِ اللَّدِيغِ، فَقَالُوا: سَلِيمٌ تَفَاؤُلًا بِالسَّلَامَةِ، وَكَمَا كَنَّوْا بِالْمَفَازَةِ عَنِ الْفَلَاةِ الْمُهْلِكَةِ الَّتِي لَا مَاءَ فِيهَا، فَقَالُوا: مَفَازَةً تَفَاؤُلًا بِالْفَوْزِ مِنَ الْهَلَاكِ. وَيُقَالُ: الطِّبُّ لِنَفْسِ الدَّاءِ.

قَالَ ابْنُ أَبِي الْأَسْلَتِ:

أَلَا مَنْ مُبْلِغٌ حَسَّانَ عَنِّي أَسِحْرٌ كَانَ طِبُّكَ أَمْ جُنُونُ

وَأَمَّا قَوْلُ الْحَمَاسِيِّ:

فَإِنْ كُنْتَ مَطْبُوبًا فَلَا زِلْتَ هَكَذَا وَإِنْ كُنْتَ مَسْحُورًا فَلَا بَرِئَ السِّحْرُ

فإنه أَرَادَ بِالْمَطْبُوبِ الَّذِي قَدْ سُحِرَ، وَأَرَادَ بِالْمَسْحُورِ: الْعَلِيلَ بِالْمَرَضِ.

قال الجوهري: «وَيُقَالُ لِلْعَلِيلِ: مَسْحُورٌ، وَأَنْشَدَ الْبَيْتَ، وَمَعْنَاهُ: إِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي قَدْ عَرَانِي مِنْك وَمِنْ حُبّك أَسْأَلُ الله دَوَامَهُ، وَلَا أُرِيدُ زَوَالَهُ، سَوَاءٌ كَانَ سِحْرًا أَوْ مَرَضًا».

وَالطِّبّ مُثَلَّثُ الطَّاءِ، فَالْمَفْتُوحُ الطَّاءِ: هُوَ الْعَالِمُ بِالْأُمُورِ، وَكَذَلِكَ الطَّبِيبُ يُقَالُ لَهُ: طِبّ أَيْضًا، وَالطِّبّ: بِكَسْرِ الطَّاءِ: فِعْلُ الطَّبِيبِ، وَالطُّبّ بِضَمّ الطَّاءِ: اسْمُ مَوْضِعٍ، قَالَهُ ابْنُ السِّيِّدِ وَأَنْشَدَ:

فَقُلْتُ هَلْ انْهَلْتُمْ بِطُبّ رِكَابِكُمْ ... بِجَائِزَةِ الْمَاءِ الَّتِي طَابَ طِينُهَا

وَقَوْلُهُ ﷺ: «مَنْ تَطَبَّبَ» وَلَمْ يَقُلْ: مَنْ طُبّ؛ لأن لَفْظَ التَّفَعّلِ يَدُلّ عَلَى تَكَلّفِ الشَّيْءِ وَالدُّخُولِ فِيهِ بِعُسْرٍ وَكُلْفَةٍ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ، كَتَحَلّمَ وَتَشَجّعَ وَتَصَبّرَ وَنَظَائِرِهَا، وَكَذَلِكَ بَنَوْا تَكَلّفَ عَلَى هَذَا الْوَزْنِ.

قَالَ الشَّاعِرُ:

وَقَيْسُ عَيْلَانَ وَمَنْ تَقَيّسَا

وَأَمَّا الْأَمْرُ الشَّرْعِيّ، فَإِيجَابُ الضَّمَانِ عَلَى الطَّبِيبِ الْجَاهِلِ، فَإِذَا تَعَاطَى عِلْمَ الطِّبّ وَعَمَلَهُ، وَلَمْ يَتَقَدَّمْ لَهُ بِهِ مَعْرِفَةٌ، فَقَدْ هَجَمَ بِجَهْلِهِ عَلَى إِتْلَافِ الْأَنْفُسِ، وَأَقْدَمَ بِالتَّهَوّرِ عَلَى مَا لَمْ يَعْلَمْهُ، فَيَكُونُ قَدْ غَرّرَ بِالْعَلِيلِ، فَيَلْزَمُهُ الضَّمَانُ لِذَلِكَ، وهذا اجتماع من أهل العلم.

قَالَ الْخَطّابِي: لَا أَعْلَمُ خِلَافًا فِي أَنّ الْمُعَالِجَ إِذَا تَعَدّى، فَتَلِفَ الْمَرِيضُ كَانَ ضَامِنًا، وَالْمُتَعَاطِي عِلْمًا أَوْ عَمَلًا لَا يَعْرِفُهُ مُتَعَدّ، فَإِذَا تَوَلّدَ مِنْ فِعْلِهِ التّلَفُ ضَمِنَ الدّيَةَ وَسَقَطَ عَنْهُ الْقَوَدُ؛ لأنه لَا يَسْتَبِدّ بِذَلِكَ بِدُونِ إِذْنِ الْمَرِيضِ، وَجِنَايَةُ الْمُتَطَبّبِ فِي قَوْلِ عَامّةِ الْفُقَهَاءِ عَلَى عَاقِلَتِهِ.

قُلْت: الْأَقْسَامُ خَمْسَةٌ: أَحَدُهَا - طَبِيبٌ حَاذِقٌ أَعْطَى الصّنْعَةَ حَقّهَا وَلَمْ تَجْنِ يَدُهُ،

فَتَوَلَّدَ مِنْ فِعْلِهِ الْمَأْذُونِ فِيهِ مِنْ جِهَةِ الشَّارِعِ، وَمِنْ جِهَةِ مَنْ يَطِبُّهُ تَلَفُ الْعُضْوِ أَوْ النَّفْسِ، أَوْ ذَهَابُ صِفَةٍ، فَهَذَا لَا ضَمَانَ عَلَيْهِ اتِّفَاقًا؛ فَإِنَّهَا سِرَايَةُ مَأْذُونٍ فِيهِ، وَهَذَا كَمَا إِذَا خَتَنَ الصَّبِيَّ فِي وَقْتٍ، وَسِنُّهُ قَابِلٌ لِلْخِتَانِ، وَأَعْطَى الصَّنْعَةَ حَقَّهَا فَتَلِفَ الْعُضْوُ أَوْ الصَّبِيُّ، لَمْ يَضْمَنْ، وَكَذَلِكَ إِذَا بَطَّ مِنْ عَاقِلٍ أَوْ غَيْرِهِ مَا يَنْبَغِي بَطُّهُ فِي وَقْتِهِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَنْبَغِي فَتَلِفَ بِهِ، لَمْ يَضْمَنْ، وَهَكَذَا سِرَايَةُ كُلِّ مَأْذُونٍ فِيهِ لَمْ يَتَعَدَّ الْفَاعِلُ فِي سَبَبِهَا، كَسِرَايَةِ الْحَدِّ بِالِاتِّفَاقِ. وَسِرَايَةِ الْقِصَاصِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ خِلَافًا لِأَبِي حَنِيفَةَ فِي إِيجَابِهِ الضَّمَانَ بِهَا، وَسِرَايَةِ التَّعْزِيرِ، وَضَرْبِ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ، وَالْمُعَلِّمِ الصَّبِيَّ، وَالْمُسْتَأْجِرِ الدَّابَّةَ، خِلَافًا لِأَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيِّ فِي إِيجَابِهِمَا الضَّمَانَ فِي ذَلِكَ، وَاسْتَثْنَى الشَّافِعِيُّ ضَرْبَ الدَّابَّةِ.

وَقَاعِدَةُ الْبَابِ إِجْمَاعًا وَنِزَاعًا: أَنَّ سِرَايَةَ الْجِنَايَةِ مَضْمُونَةٌ بِالِاتِّفَاقِ، وَسِرَايَةُ الْوَاجِبِ مُهْدَرَةٌ بِالِاتِّفَاقِ، وَمَا بَيْنَهُمَا فَفِيهِ النِّزَاعُ. فَأَبُو حَنِيفَةَ أَوْجَبَ ضَمَانَهُ مُطْلَقًا، وَأَحْمَدُ وَمَالِكٌ أَهْدَرَا ضَمَانَهُ، وَفَرَّقَ الشَّافِعِيُّ بَيْنَ الْمُقَدَّرِ، فَأَهْدَرَ ضَمَانَهُ، وَبَيْنَ غَيْرِ الْمُقَدَّرِ فَأَوْجَبَ ضَمَانَهُ. فَأَبُو حَنِيفَةَ نَظَرَ إِلَى أَنَّ الْإِذْنَ فِي الْفِعْلِ إِنَّمَا وَقَعَ مَشْرُوطًا بِالسَّلَامَةِ، وَأَحْمَدُ وَمَالِكٌ نَظَرَا إِلَى أَنَّ الْإِذْنَ أَسْقَطَ الضَّمَانَ، وَالشَّافِعِيُّ نَظَرَ إِلَى أَنَّ الْمُقَدَّرَ لَا يُمْكِنُ النُّقْصَانُ مِنْهُ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ النَّصِّ، وَأَمَّا غَيْرُ الْمُقَدَّرِ كَالتَّعْزِيرَاتِ، وَالتَّأْدِيبَاتِ، فَاجْتِهَادِيَّةٌ، فَإِذَا تَلِفَ بِهَا، ضَمِنَ؛ لِأَنَّهُ فِي مَظِنَّةِ الْعُدْوَانِ.

فصل

القسم الثاني - مُطَبِّبٌ جَاهِلٌ بَاشَرَتْ يَدُهُ مَنْ يَطِبُّهُ، فَتَلِفَ بِهِ، فَهَذَا إِنْ عَلِمَ الْمَجْنِيُّ عَلَيْهِ أَنَّهُ جَاهِلٌ لَا عِلْمَ لَهُ، وَأَذِنَ لَهُ فِي طِبِّهِ لَمْ يَضْمَنْ، وَلَا تُخَالِفُ هَذِهِ الصُّورَةُ ظَاهِرَ الْحَدِيثِ؛ فَإِنَّ السِّيَاقَ وَقُوَّةَ الْكَلَامِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ غَرَّ الْعَلِيلَ، وَأَوْهَمَهُ أَنَّهُ طَبِيبٌ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، وَإِنْ ظَنَّ الْمَرِيضُ أَنَّهُ طَبِيبٌ، وَأَذِنَ لَهُ فِي طِبِّهِ لِأَجْلِ مَعْرِفَتِهِ، ضَمِنَ الطَّبِيبُ مَا

جَنَتْ يَدُهُ، وَكَذَلِكَ إِنْ وَصَفَ لَهُ دَوَاءً يَسْتَعْمِلُهُ، وَالْعَلِيلُ يَظُنُّ أَنَّهُ وَصَفَهُ لِمَعْرِفَتِهِ وَحِذْقِهِ فَتَلِفَ بِهِ، ضَمِنَهُ، وَالْحَدِيثُ ظَاهِرٌ فِيهِ أَوْ صَرِيحٌ.

فَصْلٌ

القِسْمُ الثَّالِثُ - طَبِيبٌ حَاذِقٌ، أَذِنَ لَهُ، وَأَعْطَى الصَّنْعَةَ حَقَّهَا، لَكِنَّهُ أَخْطَأَتْ يَدُهُ، وَتَعَدَّتْ إِلَى عُضْوٍ صَحِيحٍ فَأَتْلَفَهُ، مِثْلَ: أَنْ سَبَقَتْ يَدُ الْخَاتِنِ إِلَى الْكَمَرَةِ، فَهَذَا يَضْمَنُ؛ لأَنَّهَا جِنَايَةُ خَطَأٍ، ثُمَّ إِنْ كَانَتْ الثُّلُثَ فَمَا زَادَ، فَهُوَ عَلَى عَاقِلَتِهِ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ عَاقِلَةٌ، فَهَلْ تَكُونُ الدِّيَةُ فِي مَالِهِ، أَوْ فِي بَيْتِ الْمَالِ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ، هُمَا رِوَايَتَانِ عَنْ أَحْمَدَ. وَقِيلَ: إِنْ كَانَ الطَّبِيبُ ذِمِّيًّا، فَفِي مَالِهِ، وَإِنْ كَانَ مُسْلِمًا، فَفِيهِ الرِّوَايَتَانِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ بَيْتُ مَالٍ، أَوْ تَعَذَّرَ تَحْمِيلُهُ، فَهَلْ تَسْقُطُ الدِّيَةُ، أَوْ تَجِبُ فِي مَالِ الْجَانِي؟ فِيهِ وَجْهَانِ أَشْهَرُهُمَا: سُقُوطُهَا.

فَصْلٌ

القِسْمُ الرَّابِعُ - الطَّبِيبُ الْحَاذِقُ الْمَاهِرُ بِصِنَاعَتِهِ، اجْتَهَدَ فَوَصَفَ لِلْمَرِيضِ دَوَاءً، فَأَخْطَأَ فِي اجْتِهَادِهِ، فَقَتَلَهُ: فَهَذَا يُخَرَّجُ عَلَى رِوَايَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا - أَنَّ دِيَةَ الْمَرِيضِ فِي بَيْتِ الْمَالِ. وَالثَّانِيَةُ - أَنَّهَا عَلَى عَاقِلَةِ الطَّبِيبِ، وَقَدْ نَصَّ عَلَيْهِمَا الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي خَطَأِ الإِمَامِ وَالْحَاكِمِ.

فَصْلٌ

القِسْمُ الخَامِسُ - طَبِيبٌ حَاذِقٌ، أَعْطَى الصَّنْعَةَ حَقَّهَا فَقَطَعَ سِلْعَةً مِنْ رَجُلٍ أَوْ صَبِيٍّ، أَوْ مَجْنُونٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِ، أَوْ إِذْنِ وَلِيِّهِ، أَوْ خَتَنَ صَبِيًّا بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّهِ فَتَلِفَ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا: يَضْمَنُ؛ لأَنَّهُ تَوَلَّدَ مِنْ فِعْلٍ غَيْرِ مَأْذُونٍ فِيهِ، وَإِنْ أَذِنَ لَهُ الْبَالِغُ، أَوْ وَلِيُّ الصَّبِيِّ وَالْمَجْنُونِ، لَمْ يَضْمَنْ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ لَا يَضْمَنَ مُطْلَقًا لأَنَّهُ مُحْسِنٌ، وَمَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ. وَأَيْضًا فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ مُتَعَدِّيًا، فَلَا أَثَرَ لإِذْنِ الْوَلِيِّ فِي إِسْقَاطِ الضَّمَانِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُتَعَدِّيًا، فَلَا وَجْهَ لِضَمَانِهِ. فَإِنْ قُلْتَ: هُوَ مُتَعَدٍّ عِنْدَ عَدَمِ الإِذْنِ، غَيْرُ مُتَعَدٍّ عِنْدَ الإِذْنِ، قُلْتُ: الْعُدْوَانُ وَعَدَمُهُ إِنَّمَا يَرْجِعُ إِلَى فِعْلِهِ هُوَ، فَلَا أَثَرَ لِلإِذْنِ وَعَدَمِهِ فِيهِ وَهَذَا مَوْضِعُ نَظَرٍ.

فصل

وَالطَّبِيبُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ يَتَنَاوَلُ مَنْ يَطِبُّ بِوَصْفِهِ وَقَوْلِهِ، وَهُوَ الَّذِي يُخَصُّ بِاسْمِ الطَّبَائِعِيِّ، وَبِمِرْوَدِهِ، وَهُوَ الْكَحَّالُ، وَبِمِبْضَعِهِ وَمَرَاهِمِهِ وَهُوَ الْجَرَائِحِيِّ، وَبِمُوسَاهُ وَهُوَ الْخَاتِنُ، وَبِرِيشَتِهِ وَهُوَ الْفَاصِدُ، وَبِمَحَاجِمِهِ وَمِشْرَطِهِ وَهُوَ الْحَجَّامُ، وَبِخَلْعِهِ وَوَصْلِهِ وَرِبَاطِهِ وَهُوَ الْمُجَبِّرُ،وَبِمِكْوَاتِهِ وَنَارِهِ وَهُوَ الْكَوَّاءُ، وَبِقِرْبَتِهِ وَهُوَ الْحَاقِنُ، وَسَوَاءٌ كَانَ طِبُّهُ لِحَيَوَانٍ بَهِيمٍ، أَوْ إِنْسَانٍ، فَاسْمُ الطَّبِيبِ يُطْلَقُ لُغَةً عَلَى هَؤُلَاءِ كُلِّهِمْ، كَمَا تَقَدَّمَ، وَتَخْصِيصُ النَّاسِ لَهُ بِبَعْضِ أَنْوَاعِ الْأَطِبَّاءِ عُرْفٌ حَادِثٌ، كَتَخْصِيصِ لَفْظِ الدَّابَّةِ بِمَا يَخُصُّهَا بِهِ كُلُّ قَوْمٍ.

فصل

وَالطَّبِيبُ الْحَاذِقُ: هُوَ الَّذِي يُرَاعِي فِي عِلَاجِهِ عِشْرِينَ أَمْرًا:

أَحَدُهَا - النَّظَرُ فِي نَوْعِ الْمَرَضِ مِنْ أَيِّ الْأَمْرَاضِ هُوَ؟

الثَّانِي - النَّظَرُ فِي سَبَبِهِ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ حَدَثَ، وَالْعِلَّةُ الْفَاعِلَةُ الَّتِي كَانَتْ سَبَبَ حُدُوثِهِ مَا هِيَ؟

الثَّالِثُ - قُوَّةُ الْمَرِيضِ، وَهَلْ هِيَ مُقَاوِمَةٌ لِلْمَرَضِ، أَوْ أَضْعَفُ مِنْهُ؟ فَإِنْ كَانَتْ مُقَاوِمَةً لِلْمَرَضِ، مُسْتَظْهِرَةً عَلَيْهِ، تَرَكَهَا وَالْمَرَضَ، وَلَمْ يُحَرِّكْ بِالدَّوَاءِ سَاكِنًا.

الرَّابِعُ - مِزَاجُ الْبَدَنِ الطَّبِيعِيِّ مَا هُوَ؟

الْخَامِسُ - الْمِزَاجُ الْحَادِثُ عَلَى غَيْرِ الْمَجْرَى الطَّبِيعِيِّ.

السَّادِسُ - سِنُّ الْمَرِيضِ.

السَّابِعُ - عَادَتُهُ.

الثَّامِنُ - الْوَقْتُ الْحَاضِرُ مِنْ فُصُولِ السَّنَةِ وَمَا يَلِيقُ بِهِ.

التَّاسِعُ - بَلَدُ الْمَرِيضِ وَتُرْبَتُهُ.

العاشر - حَالُ الْهَوَاءِ فِي وَقْتِ الْمَرَضِ.

الحادي عشر - النَّظَرُ فِي الدَّوَاءِ الْمُضَادِّ لِتِلْكَ الْعِلَّةِ.

الثاني عشر - النَّظَرُ فِي قُوَّةِ الدَّوَاءِ وَدَرَجَتِهِ، وَالْمُوَازَنَةُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ قُوَّةِ الْمَرِيضِ.

الثالث عشر - أَلَّا يَكُونَ كُلُّ قَصْدِهِ إِزَالَةَ تِلْكَ الْعِلَّةِ فَقَطْ، بَلْ إِزَالَتُهَا عَلَى وَجْهٍ يَأْمَنُ مَعَهُ حُدُوثَ أَصْعَبَ مِنْهَا فَمَتَى كَانَ إِزَالَتُهَا لَا يَأْمَنُ مَعَهَا حُدُوثَ عِلَّةٍ أُخْرَى أَصْعَبَ مِنْهَا أَبْقَاهَا عَلَى حَالِهَا وَتَلْطِيفُهَا هُوَ الْوَاجِبُ وَهَذَا كَمَرَضِ أَفْوَاهِ الْعُرُوقِ فَإِنَّهُ مَتَى عُولِجَ بِقَطْعِهِ وَحَبْسِهِ خِيفَ حُدُوثُ مَا هُوَ أَصْعَبُ مِنْهُ.

الرابع عشر - أَنْ يُعَالِجَ بِالْأَسْهَلِ فَالْأَسْهَلِ، فَلَا يَنْتَقِلُ مِنَ الْعِلَاجِ بِالْغِذَاءِ إِلَى الدَّوَاءِ إِلَّا عِنْدَ تَعَذُّرِهِ، وَلَا يَنْتَقِلُ إِلَى الدَّوَاءِ الْمُرَكَّبِ إِلَّا عِنْدَ تَعَذُّرِ الدَّوَاءِ الْبَسِيطِ، فَمِنْ حِذْقِ الطَّبِيبِ عِلَاجُهُ بِالْأَغْذِيَةِ بَدَلَ الْأَدْوِيَةِ، وَبِالْأَدْوِيَةِ الْبَسِيطَةِ بَدَلَ الْمُرَكَّبَةِ.

الخامس عشر - أَنْ يَنْظُرَ فِي الْعِلَّةِ، هَلْ هِيَ مِمَّا يُمْكِنُ عِلَاجُهَا أَوْ لَا؟ فَإِنْ لم يمكن علاجها، حفظ صناعته وحرمته، ولا يحمله الطمع على علاج لا يُفِيدُ شَيْئًا. وَإِنْ أَمْكَنَ عِلَاجُهَا، نَظَرَ هَلْ يُمْكِنُ زَوَالُهَا أَمْ لَا؟ فَإِنْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ زَوَالُهَا، نَظَرَ هَلْ يُمْكِنُ تَخْفِيفُهَا وَتَقْلِيلُهَا أَمْ لَا؟ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَقْلِيلُهَا، وَرَأَى أَنَّ غَايَةَ الْإِمْكَانِ إِيقَافُهَا وَقَطْعُ زِيَادَتِهَا، قَصَدَ بِالْعِلَاجِ ذَلِكَ، وَأَعَانَ الْقُوَّةَ، وَأَضْعَفَ الْمَادَّةَ.

السادس عشر - أَلَّا يَتَعَرَّضَ لِلْخَلْطِ قَبْلَ نُضْجِهِ بِاسْتِفْرَاغٍ، بَلْ يَقْصِدُ إِنْضَاجَهُ، فَإِذَا تَمَّ نُضْجُهُ، بَادَرَ إِلَى اسْتِفْرَاغِهِ.

السابع عشر - أَنْ يَكُونَ لَهُ خِبْرَةٌ بِاعْتِلَالِ الْقُلُوبِ وَالْأَرْوَاحِ وَأَدْوِيَتِهَا، وَذَلِكَ أَصْلٌ عَظِيمٌ فِي عِلَاجِ الْأَبْدَانِ؛ فَإِنَّ انْفِعَالَ الْبَدَنِ وَطَبِيعَتَهُ عَنِ النَّفْسِ وَالْقَلْبِ أَمْرٌ

مَشْهُودٌ وَالطَّبِيبُ إِذَا كَانَ عَارِفًا بِأَمْرَاضِ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ وَعِلَاجِهِمَا كَانَ هُوَ الطَّبِيبَ الْكَامِلَ، وَالَّذِي لَا خِبْرَةَ لَهُ بِذَلِكَ وَإِنْ كَانَ حَاذِقًا فِي عِلَاجِ الطَّبِيعَةِ وَأَحْوَالِ الْبَدَنِ نِصْفُ طَبِيبٍ، وَكُلُّ طَبِيبٍ لَا يُدَاوِي الْعَلِيلَ، بِتَفَقُّدِ قَلْبِهِ وَصَلَاحِهِ، وَتَقْوِيَةِ رُوحِهِ، وَقُوَاهُ بِالصَّدَقَةِ، وَفِعْلِ الْخَيْرِ، وَالْإِحْسَانِ، وَالْإِقْبَالِ عَلَى اللهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ، فَلَيْسَ بِطَبِيبٍ، بَلْ مُتَطَبِّبٌ قَاصِرٌ. وَمِنْ أَعْظَمِ عِلَاجَاتِ الْمَرَضِ فِعْلُ الْخَيْرِ وَالْإِحْسَانِ وَالذِّكْرُ وَالدُّعَاءُ، وَالتَّضَرُّعُ وَالِابْتِهَالُ إِلَى اللهِ، وَالتَّوْبَةُ، وَهَذِهِ الْأُمُورُ تَأْثِيرٌ فِي دَفْعِ الْعِلَلِ، وَحُصُولِ الشِّفَاءِ أَعْظَمُ مِنَ الْأَدْوِيَةِ الطَّبِيعِيَّةِ، وَلَكِنْ بِحَسَبِ اسْتِعْدَادِ النَّفْسِ وَقَبُولِهَا وَعَقِيدَتِهَا فِي ذَلِكَ وَنَفْعِهِ.

الثامن عشر - التَّلَطُّفُ بِالْمَرِيضِ وَالرِّفْقُ بِهِ كَالتَّلَطُّفِ بِالصَّبِيِّ.

التاسع عشر - أَنْ يَسْتَعْمِلَ أَنْوَاعَ الْعِلَاجَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ، وَالْعِلَاجَ بِالتَّخْيِيلِ؛ فَإِنَّ لِحُذَّاقِ الْأَطِبَّاءِ فِي التَّخْيِيلِ أُمُورًا عَجِيبَةً لَا يَصِلُ إِلَيْهَا الدَّوَاءُ، فَالطَّبِيبُ الْحَاذِقُ يَسْتَعِينُ عَلَى الْمَرَضِ بِكُلِّ مُعِينٍ.

العشرون - وَهُوَ مِلَاكُ أَمْرِ الطَّبِيبِ، أَنْ يَجْعَلَ عِلَاجَهُ وَتَدْبِيرَهُ دَائِرًا عَلَى سِتَّةِ أَرْكَانٍ: حِفْظُ الصِّحَّةِ الْمَوْجُودَةِ، وَرَدُّ الصِّحَّةِ الْمَفْقُودَةِ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ، وإزالة العلة أو تقليلها بحسب الإمكان، واحتمال أَدْنَى الْمَفْسَدَتَيْنِ لِإِزَالَةِ أَعْظَمِهِمَا، وَتَفْوِيتِ أَدْنَى الْمَصْلَحَتَيْنِ لِتَحْصِيلِ أَعْظَمِهِمَا، فَعَلَى هَذِهِ الْأُصُولِ السِّتَّةِ مَدَارُ الْعِلَاجِ، وَكُلُّ طَبِيبٍ لَا تَكُونُ هَذِهِ أَخِيَّتُهُ الَّتِي يَرْجِعُ إِلَيْهَا، فَلَيْسَ بِطَبِيبٍ، واللهُ أَعْلَمُ.

وَلَمَّا كَانَ لِلْمَرَضِ أَرْبَعَةُ أَحْوَالٍ: ابْتِدَاءٌ، وَصُعُودٌ، وَانْتِهَاءٌ، وَانْحِطَاطٌ، تَعَيَّنَ عَلَى الطَّبِيبِ مُرَاعَاةُ كُلِّ حَالٍ مِنْ أَحْوَالِ الْمَرَضِ بِمَا يُنَاسِبُهَا وَيَلِيقُ بِهَا، وَيَسْتَعْمِلُ فِي كُلِّ حَالٍ

مَا يَجِبُ اسْتِعْمَالُهُ فِيهَا. فَإِذَا رَأَى فِي ابْتِدَاءِ المَرَضِ أَنَّ الطَّبِيعَةَ مُحْتَاجَةٌ إِلَى مَا يُحَرِّكُ الْفَضَلَاتِ وَيَسْتَفْرِغُهَا لِنُضْجِهَا، بَادَرَ إِلَيْهِ، فَإِنْ فَاتَهُ تَحْرِيكُ الطَّبِيعَةِ فِي ابْتِدَاءِ المَرَضِ لِعَائِقٍ مَنَعَ مِنْ ذَلِكَ، أَوْ لِضَعْفِ الْقُوَّةِ وَعَدَمِ احْتِمَالِهَا لِلاسْتِفْرَاغِ، أَوْ لِبُرُودَةِ الْفَصْلِ، أَوْ لِتَفْرِيطٍ وَقَعَ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَحْذَرَ كُلَّ الحَذَرِ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ فِي صُعُودِ المَرَضِ؛ لأَنهُ إِنْ فَعَلَهُ، تَحَيَّرَتْ الطَّبِيعَةُ لِاشْتِغَالِهَا بِالدَّوَاءِ، وَتَخَلَّتْ عَنْ تَدْبِيرِ المَرَضِ وَمُقَاوَمَتِهِ بِالْكُلِّيَّةِ، وَمِثَالُهُ: أَنْ يَجِيءَ إِلَى فَارِسٍ مَشْغُولٍ بِمُوَاقَعَةِ عَدُوِّهِ، فَيَشْغَلُهُ عَنْهُ بِأَمْرٍ آخَرَ، وَلَكِنَّ الْوَاجِبَ فِي هَذِهِ الحَالِ أَنْ يُعِينَ الطَّبِيعَةَ عَلَى حِفْظِ الْقُوَّةِ مَا أَمْكَنَهُ.

فَإِذَا انْتَهَى المَرَضُ وَوَقَفَ وَسَكَنَ، أَخَذَ فِي اسْتِفْرَاغِهِ وَاسْتِئْصَالِ أَسْبَابِهِ، فَإِذَا أَخَذَ فِي الانْحِطَاطِ، كَانَ أَوْلَى بِذَلِكَ. وَمِثَالُ هَذَا مِثَالُ الْعَدُوِّ إِذَا انْتَهَتْ قُوَّتُهُ، وَفَرَغَ سِلَاحُهُ، كَانَ أَخْذُهُ سَهْلًا، فَإِذَا وَلَّى وَأَخَذَ فِي الْهَرَبِ، كَانَ أَسْهَلَ أَخْذًا، وَحِدَّتُهُ وَشَوْكَتُهُ إِنَّمَا هِيَ فِي ابْتِدَائِهِ، وَحَالِ اسْتِفْرَاغِهِ، وَسِعَةِ قُوَّتِهِ، فَهَكَذَا الدَّاءُ وَالدَّوَاءُ سَوَاءٌ.

فصل

وَمِنْ حِذْقِ الطَّبِيبِ أَنَّهُ حَيْثُ أَمْكَنَ التَّدْبِيرُ بِالْأَسْهَلِ، فَلَا يَعْدِلُ إِلَى الأصعب، ويتدرج من الأضعف إلى الأقوى إلا أن يَخَافَ فَوْتَ الْقُوَّةِ حِينَئِذٍ، فَيَجِبُ أَنْ يَبْتَدِئَ بِالْأَقْوَى، وَلَا يُقِيمَ فِي المُعَالَجَةِ عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ فَتَأْلَفُهَا الطَّبِيعَةُ، وَيَقِلَّ انْفِعَالُهَا عَنْهُ، وَلَا تَجْسُرُ عَلَى الْأَدْوِيَةِ الْقَوِيَّةِ فِي الْفُصُولِ الْقَوِيَّةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ إِذَا أَمْكَنَهُ الْعِلَاجُ بِالْغِذَاءِ، فَلَا يُعَالِجُ بِالدَّوَاءِ، وَإِذَا أَشْكَلَ عَلَيْهِ المَرَضُ أَحَارٌّ هُوَ أَمْ بَارِدٌ؟ فَلَا يُقْدِمُ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ، وَلَا يُجَرِّبُهُ بِمَا يَخَافُ عَاقِبَتَهُ، وَلَا بَأْسَ بِتَجْرِبَتِهِ بِمَا لَا يَضُرُّ أَثَرُهُ.

وَإِذَا اجْتَمَعَتْ أَمْرَاضٌ، بَدَأَ بِمَا تَخُصُّهُ وَاحِدَةٌ مِنْ ثَلَاثِ خِصَالٍ:

إحداها - أَنْ يَكُونَ بُرْءُ الْآخَرِ مَوْقُوفًا عَلَى بُرْئِهِ كَالْوَرَمِ وَالْقُرْحَةِ، فَإِنَّهُ يَبْدَأُ بِالْوَرَمِ.

الثانية - أَنْ يَكُونَ أَحَدُهَا سَبَبًا لِلْآخَرِ، كَالسَّدَّةِ وَالْحُمَّى الْعَفِنَةِ، فَإِنَّهُ يَبْدَأُ بِإِزَالَةِ السَّبَبِ.

الثالثة - أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا أَهَمَّ مِنَ الْآخَرِ، كَالْحَادِّ وَالْمُزْمِنِ، فَيَبْدَأُ بِالْحَادِّ، وَمَعَ هَذَا فَلَا يَغْفُلُ عَنِ الْآخَرِ، وَإِذَا اجْتَمَعَ الْمَرَضُ وَالْعَرَضُ، بَدَأَ بِالْمَرَضِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْعَرَضُ أَقْوَى كَالْقُولَنْجِ، فَيُسَكِّنُ الْوَجَعَ أَوَّلًا، ثُمَّ يُعَالِجُ السَّدَّةَ، وَإِذَا أَمْكَنَهُ أَنْ يَعْتَاضَ عَنِ الْمُعَالَجَةِ بِالِاسْتِفْرَاغِ بِالْجُوعِ أَوِ الصَّوْمِ أَوِ النَّوْمِ، لَمْ يَسْتَفْرِغْهُ، وَكُلَّ صِحَّةٍ أَرَادَ حِفْظَهَا حَفِظَهَا بِالْمِثْلِ أَوِ الشَّبَهِ، وَإِنْ أَرَادَ نَقْلَهَا إِلَى مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهَا، نَقَلَهَا بِالضِّدِّ» انتهى.